خصائص العروبة التى رشحتها لاحتضان الرسالة الخاتمة

obeikandl.com

اصطفى الله العرب لأداء رسالته العظمى ، وتبليغها للناس ما بقيت الحياة والأحياء ، ومنحهم بهذا الاصطفاء فضلاً غير منكور .

ونحن عندما نتأمل فى أحوال هذه الأمة عند ترشيحها للبعثة نجدها أحق من غيرها بوراثة الكتاب الكريم والقيام على هداياته .

وقد كان العرب يأنسون من أنفسهم نقاء المعدن وصفاء الطبيعة ، ويرمقون غيرهم من أتباع الديانات والحضارات الأخرى ، فلا يرون لديهم ما يبعث على الإعجاب أو الاحترام ، أفكان هذا الشعور غروراً لا يستند إلى واقع ؟ .

سنرى حقيقة ذلك فى هذا الفصل من كتابنا ...

والذى نؤكده الآن أن العرب كانوا يرون أنفسهم أقوم طباعاً وأنفذ أفكاراً ، وأعصى على الضَّيم . وأنأى عن الدنية ، وأقدر على عظائم الأمور ونيل الأمجاد ... وقد نوَّه الله ــ جلَّ شأنه ــ بذلك الاعتداد العربى ــ فقال يستثير الهمم لحمل رسالته :

« وَهَذا كِتَابٌ أَنزَلنَاهُ مُبَارَك فَاتَّبِعُوه وَاتَّقُوا لعَلَّكُم تُرحَمُون . أَنْ تَقولُوا إنَّما أُنزِلَ الكِتَابُ على طائفتين مِنْ قَبْلنَا وَ إن كُنَّا عَن دِرَاستِهِمْ لغَافِلِينَ . أو تقُولوا لوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلينَا الكِتَابُ لكُنَّا أَهْدَى مِنهم فقدْ جَاءَكم بَيِّنَةٌ منْ رَبِّكُم وَهُدى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآياتِ الله وَصَدفَ عَنها » (١) .

وقال ــ يُوَبخهم على تراخيهم فى الإجابة ومكرهم بالداعية :

« وَأقسَمُوا بالله جَهْدَ أيمانِهِمْ لئِنْ جَاءَهُم نَذير لَيَكُونُنَّ أَهْدى من إحْدَى الأُمَمِ ، فَلمَّا جاءهم نَذير مَا زَادَهُم إلا نفوراً ، اسْتكْبَاراً فى الأَرْضِ وَمَكْر السَّيِّء وَلَا يَحِيقُ الْمَكرُ السَّيِّء إلا بِأَهْلِهِ » (١) .

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٥٥ وما بعدها .

(١) سورة فاطر الآية ٤٢ .

وهذه الآيات واضحة الدلالة فى أن العرب كانوا يعتبرون كفتهم أرجح فى ميزان المواهب والملكات من اليهود والنصارى والمجوس . أو بتعبير آخر من الروم والفرس وَمَنْ دخل فى سلطانهم أو خرج عنهم .

ويصور الجاحظ نظرة العرب إلى أنفسهم فيقول :

للعرب من صدق الحس . وصواب الحدس . وجودة النظر . وصحة الرأى ما لا يُعرَفُ لغيرهم . ولهم العزم الذى لا يشبهه عزم ، والصبر الذى لا يشبهه صبر . والجود والأنفة والحمية التى لا يدانيهم أحد فيها . ولا يتعلق بها رومى ولا هندى ولا فارسى .

وفيهم أيضاً خصلة لا تصاب إلا فيهم .

وذلك أن سفلة كل جيل . وغفلة كل صنف إذا اشتد تشاجرهم وطالت ملاحاتهم . وكثر مزاحهم . وشاعت الدعابة بينهم . وجدتهم يخرجون إلى ذكر الحرمات . وشتيمة الأمهات . واللفظ السيء والسفه الفاحش . ولست بسامع من هذا حرفاً فى البادية . لا فى صغيرهم ولا فى كبيرهم . ولا جاهلهم ولا عالمهم .

وليس فى الأرض صبيان فى عقول الرجال غير صبيانهم . وكل شيء تقوله العرب هو سهل عليها أو كطبيعة فيها . وكل شيء تقوله العجم فهو تكلف واستكراه » ...

والعرب شعب ذكى قوى . وقد استجمعوا على عهد البعثة كل الخلال التى تنجح بها رسالة عظمى . بل إن ما تتطلبه دعوة ضخمة كدعوة الإسلام لم يكن يتوفر إلا فى هذه الجزيرة التى عبأتها الأقدار بشتى القوى والمواهب .

ولنتحدث عن أولى هذه المرشحات .

١ ــ الناحية النفسية :

بلغت قوة الفرد مداها بين العرب . وشعر كل ساكن فى هذه الصحراء أن له من العزة وتمام الشخصية ما يجعله إنساناً يفرض نفسه على ما حوله ويأخذ امتداده المطلق فى كل ناحية . وقد جعلهم هذا الشعور أصحاب حساسية شديدة

بأنفسهم . وبما عليهم من واجبات وما لهم من حقوق وربما وصلوا فى تلك العاطفة إلى حد التطرف على نحو ما قال شاعرهم :

لو كانَ فى الألفِ منا واحدٌ فدعوا
مَن فارس ؟ خالهم إياه يعنُونا

أو كما قال الآخر :

إذَا القومُ قالوا : مَنْ فتىً خِلْتَ أننى
عَنِيتُ فلم أكسَلْ ولم أتبلد

وهذه الخصلة تجعل صاحبها رجل صدق ووفاء . إذا قال كلمة وقف عندها ، فلم يغلبه نسيان . ولم تزله رهبة . والدعوات تقوم أول ماتقوم على أمثال هؤلاء الرجال .

والبيئة العربية طبعت أبناءها على إلف الصعاب . وقلة المبالاة بالشدائد . ومواجهة الموت ببسالة ورضا . أو برغبة وابتسام . إنهم لا يعبدون الحياة . أو يقبلونها على أى أحوالها . كلا . إما لانت لهم أو بانوا عنها . ولن يقبلوها على ضيم أو حرمان .

ومما يصور هذه القدرة على استقبال الموت قول دريد :

أبى الموتُ إلا آل صِمَّة إنهم ... أبَوْا غيره والقدر يجرى إلى القدر
فإنَّا للحمِ السيف غيرُ نكيرة ... ونلحمه حيناً وليس بذى نُكر
قسمنا بذاك الدهرِ شطرين بيننا ... فما ينقضى إلّا ونحن على شطر

وقول الآخر :

شَدَدْنا شدةً فقتلت مهم ... ثلاثةَ فتية وقتلت « قَيْنا »
وشدُّوا شدةً أخرى فجروا ... بأرجل مثلهم ورمَوْا « جُوَينا »
وكان أخى جوين ذَا حفاظ ... وكان القتلُ للفتيانِ زَيْنا

وتعوُّدُ التضحية بالنفس مؤهل للسيادة . وباب إلى امتلاك الحياة كما قيل : « اطلب الموت تُوهب لك الحياة » .

والرسالة التى تقوم أول عهدها على كفاح الطغاة . ولقاء كيدهم وسخطهم أحوج ماتكون إلى هذه الخليقة .

كما كان العربى شجاعاً كان كريماً مسماحاً . يتهيأ لمقابلة أضيافه وهو متهلل الأسارير . وطيب النفس .

فقامَ أبو ضيفٍ كريمٍ كأنه وقد جَدَّ من فَرْطِ الفكاهةِ مازحُ
إلى جذم مالٍ قد سهكنا سوامه وأعراضنا فيه بَواقٍ صحائِحُ

والكرم طبيعة عمَّتْ العرب . وشاعت فى أغنيائهم وفقرائهم :

نصبُوا بمدرجةِ الطريقِ قُدورَهُم يتسابقُونَ إلى قِرَى الضَّيفانِ
ويكادُ موقدهم يَجودُ بنفسهِ حب القِرَى حَطَباً على النيرانِ

وبذل المال مع الاستعداد لبذل النفس عند أول نداء ضمان وثيق لنجاح أية نهضة .

ومن خلائق العرب غيرتهم الشديدة على الأعراض . وحرصهم البالغ على صيانة الحريم . وربط ذلك بكرامة الفرد والأسرة . وذهابهم فى هذا المضمار إلى حَدٍّ لاتعرفه أمة أخرى .

وقد بلغ الهوس بنفر منهم أنّ كَرهَ البنات ، ووأدهن أطفالاً خشية العار ، أو خشية العجز عن الارتزاق .

وهذا طور من القسوة يخرج البشر إلى طور الحيوان .

وكم يقسو البشر بعضهم على بعض لنفخة كاذبة حتى ينسلخوا من إرهابهم ويلبسوا جلود الذئاب ، من عصور مضت حتى عصرنا هذا ..

على أن وأد البنات ظهر لماماً فى بعض القبائل ، وبرئت منه جملتها .

وجوانب النفس العربية ــ على الإجمال ــ تفيض بكثير من معانى القوة والصراحة والصرامة والأنفة ، وهى خصال إذا صلح توجيهها صنعت العجائب .

وذاك ما تولاه الإسلام .

٢ ــ الناحية الاجتماعية :

وامتاز العرب بالصفات السالفة يزيده التماعاً خلو بيئتهم من الفساد المعقد الذى زخرت به البيئات المجاورة .

فليس فى هذه البيئة العربية الكهنوت الدينى ، ولا النظام الإقطاعى ، ولا الاستبداد السياسى . مما عرفته الشعوب الأخرى ، وترك فى كيانها المادى عللًا جساماً .

نعم خلت الجزيرة من الملوك المتوجين ، وكان نظامها السياسى أشبه بمجموعة من القيادات المحلية المتناثرة هنا وهناك .

ولم يكن سيد القبيلة جباراً فيها يهضم من حوله ، بل كانت القبيلة تحمى كل امرىء فيها ، وتضرب سياجاً منيعاً حول حرماته .

* * *

ما الذى كان يحمى الدماء والأموال والأعراض فى تلك الفجاج الفسيحة ؟ مع العلم بأنه لم يكن ثمَّ سلطة مرهوبة ولا قوانين مكتوبة !

إن العصبية الهائلة التى شدت أفراد كل قبيلة بعضهم إلى بعض ، وجعلت من الجماعة كياناً متماسكاً موصول الشعور ، هذه العصبية القبلية ، كانت محور النظام الذى شاع فى تلك الأرجاء البدائية .

فالجماعة مسئولة عن الفرد ، والفرد مسئول عن الجماعة .

وفى الخير والشر والخطأ والصواب كانت هذه العصبيات تنطلق من مكانها متلاحمة لا يردها شىء ...

وقد أتاح هذا النظام لكل أحد من القبيلة قدراً من الأمان يحيا فى ظلاله وافراً ، إذ إن العدوان عليه ليس عدواناً على امرىء فذ ، بل على قبيلة بأسرها .

وامتدت هذه المنفعة من الأفراد إلى أى غريب يدخل فى جوار القبيلة ويلتمس حمايتها .

وإلى هذا النظام السائد يرجع ما ظفرت به دعوة الإسلام أول أمرها من محافظة وبقاء .

فإن بنى هاشم رفضوا أن يخلو بين النبى وبين أعدائه ، وتجمَّع مؤمنهم وكافرهم على سواء فى الدفاع عنه والوقوف دونه .

ورأوا أن تسليمه لخصومه عار يلحق أهله كلهم ، وإن كان فيهم من لا يؤمن برسالته ولا يستجيب لدعوته ..

وقد رأينا العباس ـــ وهو كافر ـــ يحدث الأنصار قبل انتقال الرسول إلى بلدهم فيقول : إن محمداً هنا فى عزوة تنافح عنه ، فإذا لم يَلْقَ مثل هذه الحماية من أهل المدينة فلا معنى لخروجه ...

ورأينا أبا لهب ، وقد نزل فيه قرآن يلعنه ، يعرض على النبى أن يقوم منه مقام أبى طالب بعد وفاته ، فيتولى نصرته ومؤازرته .

ورأينا المطعم بن عدى ـــ وهو مشرك ـــ يقبل أن يدخل الرسول فى جواره وهو عائد من الطائف عودة محزنة متعبة .

ويخرج هو وبنوه فى سلاح كامل ليقاتلوا مَنْ يحاول النَّيْلَ من محمد .

إن هذه النخوة الغريبة كفلت لوناً من الحرية السياسية والكرامة الفردية لم يُعرف عصرئذ فى أية دولة أخرى .

ولو أن داعية للتوحيد ظهر فى ربوع الروم ، أو أقطار الفرس لأصدر كسرى أو قيصر أمراً باعتقاله ، أو ضرب عنقه ، فانقضى ، وانقضت دعوته دون أن يسمع بها أحد .

ولو أنه نال فرصة الحياة أياماً ما استطاع أن يربى على مكث جيلاً من الرجال الذين رسا اليقين فى صدوره ، وتلقوا دروساً فى التربية والتشريع . كان العالم أحوج ما يكون إليها فى مستقبله البعيد .

* * *

لم تعرف بطحاء مكة ولا ما حولها الكهانة الدينية التى تقترن بالنصرانية وتسير أبداً فى ركاب الكنيسة .

نعم توجد قبائل قد تنصرت فى الشمال والجنوب ، كما أن هناك فصائل يهودية تسربت إلى جوف الصحراء ، وتهوَّد فى جوارها نفر من العرب . لكن الوثنية كانت الصبغة السائدة فى أرجاء الصحراء .

ويمكننا القول بأن الطبيعة العربية غلبت على خلائق كثير من اليهود والمتهودين ، والنصارى والمتنصرين ، فلم تستطع هذه الديانات اجتذاب جمهرة العرب إليها ، ولا هى حيث استقرت بقيت لها نظمها الكنسية المعروفة فى بلاد الروم مثلاً ...

وكانت أمية الكتابة وأمية التدين تستولى على تلك البقاع الشاسعة وتجعل قلوب أهليها وأذهانهم غفلاً .

والخبراء بعلل التدين الفاسد يعلمون أن الجماهير الساذجة أو المخرفة أيسر اقتياداً للحق من الجماهير التى اعتنقت أفكاراً فيها مزيج من حق وباطل ، فإن تعصبها لما تعرف من حق يجعلها تعتذر لما ورثت من باطل ، فهى قلما تتحول عنه بسهولة .

إن الأرض الخالية أعون على سرعة البناء من الأرض المليئة بالأنقاض ، والواقع أن تعصب اليهود لما لديهم من مواريث ، وتعصب النصارى لما آل إليهم من تثاليث يجعل بدء الرسالة فى غيرهم أحكم ...

هل يعنى ذلك أن الوثنية لفظت أنفاسها دون عناء ؟ ... كلا ، فإن عبدة الأصنام جادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ، وانتضوا السيف ليخرسوا به الحجة ، ولكن الإسلام الذى اكتسب أنصاره بالاقتناع واليقين تغلّب على هذه الصعاب ، واستمكن من مَدِّ رواقه على أنقاض الشرك المدبر .

واشتعل هذا الكفاح أمداً طويلا حتى استقرت الأمور له بعد لأى ...
بيد أن حرب الكلام والسنان مع أولئك الوثنيين كانت أبعد عن الدسِّ

والالتواء من الحروب التى نشبت للأسف مع أهل الكتاب ، سواء فى الجزيرة أو ما وراءها ، وكلفت الإسلام عناء شاقاً .

* * *

وكان فى عرب الجزيرة الغنى والفقير ، شأن أى مجتمع إنسانى ، ولكن الصحراء الوسيعة خلت من نظام الإقطاع ، وما يتبع الإقطاع من رِقٍّ وهوان ، وترف وانتفاخ .

إن طبيعة العلائق بين السادة والأتباع فى الجزيرة كانت أدنى إلى الكرامة الانسانية من الأوضاع التى عرفت فى أقطار أخرى ..

ومنطق العرب فى هذا ما قاله الشاعر :

جَفَانى الأميرُ ، والمغيرةُ قد جَفَا وأمسى يزيدُ لى قَدْ ازورَّ جانبه
وكلهم قَدْ نالَ شبعاً لبطنهِ وشبعُ الفتى لُؤْم إذَا جاعَ صاحبه

وجو الحرية الطليق فى هذه الوهاد والنجاد ، أتاح لصنوف الناس مستوى من الخلق المفعم بالإباء والحمية لا نظير له فى أقطار أخرى .

* * *

قد يظن ظان أن ما نقلناه من شواهد التضحية والإيثار والاعتزاز . أو من معالم الكرامة الاجتماعية والسياسية . ليس أكثر من صور جزئية ، أو أحوال محلية لبعض الأفراد والقبائل . ولا يمكن الاستدلال بها على واقع المجتمع العربى فى هذه الأعصار ..

. ونحن لا نزعم أن العرب كلهم فى كرم حاتم ، أو شجاعة عنترة .
ولكنا نسوق الشواهد التى ذكرناها بياناً لوجهة الأخلاق فى تلك البيئة البدائية .

فإن التقاليد فى أمة ما تأخذ سَمْتها الكامل فى سلوك نفر من أبنائها ، وتبقى بعد ذلك مُثلاً عليا للجماهير التى تجاهد لبلوغها ، وتحب أن تُعرف بها .

وقد كان العرب فى جملتهم من النواحى النفسية والاجتماعية على ما وصفنا من سخاء وإباء ، واعتداد بالنفس والقبيلة .

ومن هبط منهم عن هذا عُرِفَ بسوأته تلك ، وسقطت حرمته عند نفسه ، وعند غيره ..

* * *

٣ ــ صفاء الفطرة العربية وخلوها من التأثر بثقافات فلسفية مناهضة :

قلنا إن العرب أمة أمية ، لا تشيع فيها الكتابة ، ولا تنتظم فوق رقعتها المدارس ، على عكس ما كان شائعاً بين الروم والفرس .

ومع أن أمية القراءة والتعليم غلبت على أكثر العرب ، فإنهم امتازوا بشىء كثير من حدة الفهم ، وصفاء الذهن ، وإحكام التعبير ، وسرعة الإدراك ، مع سهولة فى العيش ، وبساطة فى البيئة ، وبُعْدٍ تامٍّ عن التصنع والمراءاة ..

وتلك خلائق لم تُعهد فى غيرهم على النحو الذى ظهرت به فيهم .

وإنك لَتجد أعرابياً مؤمناً يسأل عن الله كيف عرفه ؟ .. فيقول : البعرة تدل على البعير ، والأثر يدل على المسير . فأرض ذات فجاج ، وسماه ذات أبراج ، أفلا تدل على الخبير البصير ؟ .

وهذا منطق السجية المستنيرة ، والطبع المستقيم .

وربما كان هذا الكلام أثر ظهور الإسلام ، واهتداء البصائر بهاره الساطع لكن طبيعة العربى السهلة تتجلى فيه .

وإلى هذه الطبيعة السهلة ، وإلى أنها لا تألف النقائض ، ولا تسيغ الالتواء الفكرى ، نرجع بنجاح الإسلام فى حجاجه مع أولئك العرب عندما كانوا مشركين .

ذلك أن القرآن جادلهم فى شأن آلهتهم التى أشركوها مع الله ، ألها نصيب فى الخَلْق والرزق والتدبير ؟ فكانت الإجابة المسددة : لا .

﴿ قُل منْ يَرزُقُكُم منْ السَّماء والأرْض . أمَّنْ يَملكُ السَّمعَ والأبْصارَ وَمَنْ يُخْرجُ الحيَّ من الميِّتِ ويخْرجُ الميِّتِ مِنَ الحيِّ ومنَ يُدَبِّرُ الأمرَ فَسيقولُونَ الله ، فقُل أفَلا تتَّقونَ ، فذَلِكُم الله رَبُّكُم الحقُّ ، فماذا بعْدَ الحقِّ إلَّا الضَّلالَ فأنَى تُصْرَفُون ﴾ (١)

ولو كان غيرهم من أصحاب الفلسفات الأخرى لكانت إجابته مليئة بالعقد والأغاليط والعُجَر والبُجَر (٢).

إن فلسفة التثليث ــ وهى ضرب من التفكير البشرى غلب على ديانة عيسى ابن مريم عليه السلام ــ وجدت جماهير من الناس تسيغها ، ولما كان إمرارها من الذهن العادى صعباً . فقد أجريت عدة فتوق فى الذهن الإنسانى حتى يسمح لهذه الفلسفة بالمرور .

ومع تلك الثغرات المصنوعة فى الفكر ، كى يقبل ما لا يعقل ، فإن أصحابها اختلفوا على أنفسهم اختلافاً دامياً .

كيف يتولد قديم من قديم ، ويكون الاثنان واحداً ؟

بل هم على ما زعموا ثلاثة قدماء ! لأن وسيطاً بين الأب والابن هو الروح القدس ! .

ثم كيف بعد ذلك تتصور العلاقة بين تلك الأقانيم المختلفة ، والتى هى أولاً وآخراً شيء واحد ؟ !

أهى طبيعة واحدة ، ومشيئة واحدة للأب والابن ، أم هما مشيئتان وطبيعتان ، أم طبيعة واحدة ومشيئتان ؟ .

لقد ظهر الإسلام ، والخلاف ناشب بين الرومان من ناحية ، وجمهرة أهل الشام ومصر من ناحية أخرى فى تلك المسائل المحيرة ...

أما عرب الجزيرة فكانوا بعداء عن هذه المجادلات التى لا توائم أذهانهم ، ولا تصاحب أمزجتهم ، ولا طاقة لهم على الخوض فيها .

---

(١) سورة يونس الآية ٣١ ــ ٣٢ .

(٢) المقصود بالعجر والبجر المعايب والنقائض .

صحيح أن النصرانية وجدت لها بعض المعتنقين فى اليمن ، وأسفل الشام ، ولكن هذا الاقتناع المحلى لم يتجاوز حدوده الضيقة ، خصوصاً بعدما فشلت حملة أبرهة على مكة ، وبادت جيوشه قبل أن تهدم البيت الحرام .

على أن نصارى العرب فهموا التثليث بصورة تقارب وثنيتهم الشائعة ، فتصوروا العلاقة بين أطراف الأقانيم تشبه العلاقة بين أفراد أسرة مقدسة ، توصف مريم فيها بأنها أم الإله والابن ، وصاحبة الإله الأكبر ! .

وقد نفى القرآن هذا النسب المدَّعى :

« بديع السماوات والأرض أنَّى يكون له ولد ، ولم تكُنْ له صاحبة وخلق كل شئ وهو بكل شئ عليم » (١) .

إن العقبات أمام التوحيد المطلق الذى دعا إليه محمد ، كانت ميسورة التهشيم فى الوثنية العربية ، لان طبائع العرب أسلس قياداً للحق ، وأسرع عزوفاً عن الباطل ، وذلك لأن سجاياهم النفسية والعقلية لم تعوج مع الفلسفات الدينية التى التاثت بها ، واستنامت لها جماهير أخرى .

* **

فإذا ولّينا وجهنا شطر الفرس ، وجدنا فلسفات دينية أخرى يستحيل أن يرتضيها العرب لأنفسهم ، أو يحيوا وفق أسلوبها الشرود .

كان الفارسيون ، ومَنْ خضع لهم صَرْعى نزعات مضطربة .

فهناك «الزرادشتية» المجوسية التى اعتنقتها السلطات الحاكمة ، وشاعت فلسفتها الممسوخة بين كثيرين من الأعاجم .

وهذه الفلسفة الدينية لاتعتمد على إيمان حق ، بل ليس فيها أثارة من إيمان .

وقد بلغ الانحراف فى تعاليمها أن أفتى طاغيتها بأمر عجب ، ذلك أنه جعل زواج الرجل بأمه أفضل من زواجه بغيرها من النساء ، وجعل أولاده منها آثر وأزكى ! ...

---

(١) الأنعام : ١٠١ .

ألا ترى جهالة العرب أفضل من هذه الحضارة ؟ ..

وانتشرت «المزدكية» بين طوائف من المنحلين والصعاليك ، وهى مذهب يجعل النساء والأموال شيوعاً بين الخلق ، ويهدم كل الحدود التى تقوم بها المجتمعات ..

ولعل هذا المذهب قريب فى آثاره من الوجودية الغربية ، ومن الشيوعية الشرقية ، وهى مذاهب لها فى عصرنا عشاق وأتباع .

والعرب فى جاهليتهم كانوا أنطف نفوساً ، وأنقى صحائف من أن يميلوا إلى تلك النِّحَل الساقطة ، أو يسمحوا لها بالتسرب إلى بيئتهم .

***

إنِ التدين الباطل قد يعزُّ على العلاج ، لأن صاحبه فاسد يَعدُّ نفسه صالحاً ...

ومن ثَمَّ لا يعرض نفسه على طبيب ، ولايقبل من طبيب أن يسوق له شفاء .

وقد ندد الحديث بأقوام يجيئون آخر الزمان «تتجارى بهم الأهواء ، كما يتجارى الكلب بصحابه ، لا يدع منه عرقاً ولا مفصلاً » وهذا النوع من الناس قليل الصلاحية ، أو عديم الصلاحية ، لتحمُّل رسالات الخير والنهوض بتبعاتها ، وتلك كانت أحوال كثير من الشعوب التى أضلتها التعاليم الخاطئة ، والفلسفات المنحرفة .

أما العرب فى صحرائهم ، فإن ديهم الخرافى لم يملأ شعاب قلوبهم بالأهواء التى تطرد الحق ، لقد كانت نفوسهم أشبه بثمرة لم تنضج .

أما الحضارات الأخرى فكانت أشبه بثمار ضرب فيها العفن والبلى ، وأمست لامكان لها إلا بطن الثرى ...

***

واختيار القدر للعرب كى يحملوا الرسالة العظمى جاء على سنن الحكمة الإلهية فى اصطفاء الأفراد والشعوب .

وقد أعد الله محمداً ، ليكون عميد الأنبياء ، وليقدم للعالم أجمع خلاصة

النصائح والشرائع التى يستطيع العيش بها آخر الدهر .

وهذا الاختيار الذى تهيأت له نفس عظيمة ، تهيأت له كذلك أمة نستطيع الحكم بأنها كانت يومئذ أجدر من غيرها بصحبة هذا الرسول والتبليغ عنه ، ويمكن أن يشملها قوله جل شأنه :

«الله أعْلمُ حَيثُ يَجْعل رِسالَتَهُ » [1] .

وقد يقال : المعروف أن أحوال العرب قبل البعثة دون ما وصفت .

إنهم كانوا فى جاهلية طامسة بيِّنة الضلال ، فكيف ينسبون إلى هذه المواهب النفسية والاجتماعية ؟ .

ونقول: إن الدنيا كلها كانت غريقة فى هذه الجاهلية الطامسة ، وإن الليل الذى عَمَّ أرجاءها ، جعلها كلها مسرحاً للفتن والشرور ، لافارق بين قارة وأخرى :

« ظهر الفسادُ فى البرِّ والبحر بما كسبتْ أيدى الناس لِيُذيقَهُمْ بعض الذى عملوا لعلّهم يرجعون » [2] .

والسؤال الذى أجبنا عنه هو أى هاتيك الشعوب أعصى على العلاج ، وأيها أدنى ؟ .

ثم أيها – إذا شُفى من سقامه – أقدر على تكاليف النهضة الإسلامية ؟

أو بتعبير أصرح أقدر على أعباء الثورة الإسلامية التى يطلب إليها أن تدك عروشاً فاجرة ، وأن تمحو ما ثم طال عليها المدى ؟ ؟

السؤال الذى أجبنا عنه : أى البقاع يطلع منها النور فى أعماء هذه الظلمات .. ؟

ونحن نؤكد أن العرب وحدهم كانوا أولى من الفرس والروم بهذه الرسالة الضخمة .

---

(١) الأنعام : ١٢٤

(٢) الروم : ٤١

الأمة العربية

منذ انبثقت أشعة الإسلام من جزيرة العرب دخلت الأمة العربية فى طور جديدة من حياتها لم تكن قبله شيئاً مذكوراً .

لكأنها كانت قبل الإسلام جنيناً يكتمل نموه على مكث فى هذه الصحراء الموحشة المعزولة ، حتى إذا استكمل أسباب الحياة برز خَلْقاً سَوِىَّ المشاعر ، قوى المسير ذكى الوجهة .

نعم لم يكن للعرب قبل الإسلام كيان سياسى يلُمُّ شملهم .

ولم تكن لهم رسالة إنسانية تشير إلى وظيفتهم العالمية .

بل لم يكن لهم طابع أدبى واضح الملامح يمتازون به فى المجال الدولى .

ويمكننا أن نصف منزلة الأمة العربية بين أجيال الروم والفرس يومئذ ، بأنها لاتزيد عن منزلة شعب كأهل «الكونغو» مثلاً بالنسبة إلى «الروس» و«الأمريكان» .

فلما بُعِثَ محمد بين العرب ، ولما صاغ الإسلام هذه الأشتات من البشر صياغته المحكمة ، بدأت الأمة العربية تظهر فى التاريخ .

وأخذت دائرتها تنداح قرناً بعد قرن ، وجذورها تعمق حيناً بعد حين حتى أصبحت الأمة العربية – بهذه الرسالة التى حملتها – تمثل غاية من أعرق الغايات ، وعديداً من الخلائق تموج بهم الأرض فى عدة قارات .

والجزيرة العربية التى كانت مهاداً للعرب ، ومسرحاً لحياتهم الأولى تقع بين الخليج الفارسى شرقاً ، والبحر الأحمر غرباً ، والمحيط الهندى جنوباً – حيث تمتد شواطىء اليمن ، وأوائل الشام شمالاً . أما الشام نفسها – سوريا وفلسطين والأردن ولبنان – فليست ضمن جزيرة العرب ...

وليس بمستغرب أن يغادر ناس من سكان الجزيرة بلادهم ملتمسين رزقاً أرغد فى الأودية الخصبة من حولهم ، بيد أنه من المستبعد أن يكون هؤلاء النازحون نواة العمران والمدنية فى مصر والعراق ، فإن وادى النيل ، أو بلاد النهرين لم تكن خواء كأرض الأمريكتين عند اكتشافها ، وعندما جاء الأوربيون بحضارتهم ونشاطهم لإحيائها .. بل الأمر على العكس ، فقد كانت هذه الأقطار مجالاً لنشاط إنسانى رائع ، بل نستطيع الجزم بأنها كانت أرفع مستوى من الصحراء التى هاجر العرب الأقدمون منها التماس القوت والسَّعة ..

وعندما غزا الهكسوس مصر نظر إليهم المصريون على أنهم غرباء معتدون ، ومازالوا يقاومونهم حتى أجلوهم عن بلادهم .

إن العروبة الحقيقية لمصر والشام والعراق وغيرها من أجزاء – الأمة العربية الآن – لم تبدأ إلا مع مسير الإسلام واستقراره ، ودخول الناس أفواجاً فيه ..

***

ولبعض المؤرخين كلام فى تاريخ العرب قبل الإسلام نرى أن نتريث قليلاً لمناقشته ...

ذلك أن هذا البعض يرى العرب هم الجنس السامى كله .

ويعدُّهم أصل العمران والحضارات فى المناطق الفيحاء الممتدة بين الخليج العربى والمحيط الأطلسى منذ أربعين قرناً قبل الميلاد .

وهو بهذا الرأى يحتسب حضارة الفراعنة والفينيقيين والأشوريين وسائر الأقوام الذين ظهروا فى تلك البقاع حضارة عربية .

بل يرى أن سكان تلك الأرجاء نزحوا إليها فى هجرات متعاقبة من قلب الجزيرة العربية على تفصيل سيأتيك نبؤه ...

ولسنا نسعى إلى تصديق هذا الكلام أو تكذيبه .

فنحن المصريين سواء لدينا أن يكون الفراعنة الأقدمون عرباً أو غير عرب .

كما أنه سواء لدى السوريين أن يكون أجدادهم فى أغوار التاريخ عرباً أو غير عرب .

إننا فى يوم الناس هذا ألّفنا الجمهورية العربية المتحدة ، وشعرنا يوم تأليفها أنها ضمت جزءين من الأمة العربية الكبيرة التى تسكن فى وطنها الممتد بين المحيط والخليج .

إن هذا الوطن عربى يقيناً ، فإن كان أهله عرباً بالدم الموروث أو مستعربين باللسان والشعور فالأمر فى نظرنا سواء ...

لكن الذى نثبته هنا ، ونكرره مثنى وثلاث : أن الهجرات القديمة التى حملت العرب من جزيرتهم إلى ما حولها وما بعدها – إن صحت – فالبون بعيد جداً بينها وبين الفتح الإسلامى الأخير .

ذلك أن الهجرات الأولى ، كانت طلباً للقوت ، وسَعْياً وراء الرزق فهى نشاط إنسانى عادى تقوم به ضروب الأحياء إجابة لغرائزها .

أما الانطلاقة العربية الأخيرة فهى سير رسالة سماوية يحدوها نداء إلهى .

ولولا هذه الرسالة لقبع العرب فى دُورهم ما يصنعون شيئاً .

ولو أنهم تحركوا من غير هذه الرسالة الإسلامية لَتلاشَتْ زحوفهم أمام ضربات العِصِّى من الروم والفرس .

ولا نقول أمام ضربات السيوف فإن أمرهم سيكون أهون من ذلك .

إن الزعم بأن خروج العرب بالاسلام من صحرائهم حركة تشبه حركاتهم القديمة فى ترك الصحراء الجديبة إلى الوديان الخصيبة هو زعم صبيانى لايصح أن يُذكَرَ فى مجال البحث العلمى ، وإن ذكره نفر من المبشرين والمستشرقين .

ومع ذلك فنحن كما قلنا لاننكر أن تكون قبائل عربية كثيرة نزحت من مضاربها فى الصحراء إلى بلاد أخرى ، حيث فضلت البقاء على العودة .

والعرب شعب رَحَّال ، وهو أجدر بالضرب فى فجاج الأرض من الانكليز

الذين استطاعوا فى عصرنا هذا أن يعمروا قارة تبعد عن وطنهم ألوفاً مؤلفة من الأميال .

ولندع هذا الاستعراض النظرى إلى واقع الحياة .

فوطن العروبة اليوم قد وطَّأ الإسلام أكنافه ، ووسَّع حدوده ، وجعله يربو أضعافاً مضاعفة على الوطن الأم فى صحراء الجزيرة ، وجعل كل شبر فيه مسئولاً عن الرسالة التى قام بها وعاش لها .

ذلك ... وعنايتنا بالوطن العربى الكبير لا تنتقص ذرة من عنايتنا بالوطن الإسلامى الأكبر .

فهذا الوطن الأعظم يضم إخوان العقيدة الذين لا يمكن أن تبلى صلاتهم بنا ، ولا أن تَهِن روابطهم معنا .

وما يتعرض له هؤلاء الإخوة من عناء ، أو ينالهم من مسرة تخفق له أفئدتنا ، ونشركهم فى الإحساس به شركة الجسم الواحد فيما ينوبه من بأساء ونعماء .

إن سدنة القومية العربية بعدما أسقطوا مكانة الإسلام من القلوب ، وأنزلوا رايته من ميدان الحياة العامة أشاعوا بين الناس أن العناية لاتنبغى إلا لأرض العرب وحدها وأن الاهتمام لا يتجه إلا لقضايا العروبة بين المحيط والخليج .

أما آلام المسلمين فى الهند وباكستان وأندونيسيا ، أو جراحاتهم فى الحبشة والصومال وأرتريا ، فهذه وتلك لا تطرح على بساط البحث إلا كما تطرح — على ندرة — بعض المآسى الإنسانية العامة ، لتتخذ فيها قرارات باردة .

والقضاء على الإخاء الإسلامى ، وإيحائه السياسى والاجتماعى مقصود من خلق هذه القومية العجيبة .

ونحن نرفض بتاتاً هذا الشعور الكافر ، ونرى كل شبر يقطنه مسلم جزءاً من دارنا وحرماتنا ، ونشارك أهله حُلْو الحياة ومُرّها ، ونفرح لاستقرارهم ونبتئس لانكسارهم .

وقد بكى المؤمنون العرب مصاب إخوانهم فى البلقان والأندلس ، كما بكينا فى عصرنا هذا احتلال اليهود لفلسطين وفرنسا للجزائر .

وتدبر قول أبى البقاء صالح بن شريف الرندى يذكر ضياع الأندلس :

لكُلِّ شىءٍ إذَا ما تَمَّ نقصانُ ... فلا يُغَرُّ بطيب العيش انسانُ
هى الأمور كما شاهدتُهَا دوَلٌ ... مَنْ سرَّه زمن ساءته أزمانُ
وهذهِ الدُار لا تُبقى على أحدٍ ... ولا يدومَ على حالٍ لها شَانُ
يمزقُ الدهرُ حتْماً كُلَّ سابغة ... إذَا نبت مشرفيات وخرصانُ
وينتضى كل سيف للفناءِ ولو ... كان ابنُ ذِى يزنٍ والغمد غمدانُ
أين الملوك ذوو التيجانِ من يمنٍ ... وأين منهم أكاليلُ وتيجانُ ؟؟
وأين ما شادَه شدَّادُ فى إرمٍ ... وأين ما ساسَه فى الفرسِ ساسانُ ؟؟
وأين ما حازَه قارونُ من ذهبٍ ... وأين عادُ وشدَّادُ وقحطانُ ؟؟
أتَى على الكُلِّ أمرٌ لا مردّ له ... حتى قَضَوْا فكأنَّ القومَ ما كانُوا
وصارَ ما كانَ من ملك ومن ملك ... كما حكى عن خيالِ الطيْفِ وَسْنانُ
دارَ الزمانُ على دَارا وقاتِلِهِ ... وأمَّ كِسرى فما آواهُ إيوانُ
كأنما الصعبُ لم يسهل له سببٌ ... يوماً ولا ملكَ الدُّنيا سليمانُ
فجائعُ الدهر أنواع مُنوَّعةٌ ... وللزمـــانِ مسرَّاتٌ وأحـــزانُ
وللحوادثِ سلوان يسهلهـــا ... وما لما حَلَّ بالإسلامِ سُلْوانُ
دَهَى الجزيرةَ أمر لا عزاءَ له ... هَوى له أحد وانهدَّ ثهلانُ
أصابها العينُ فى الإسلام فارتزأتْ ... حتى خلتْ منه أقطارٌ وبلدانُ
فاسألْ بلنسيةَ ما شأنُ مرسية ... وأين شاطبةَ أمْ أينَ جَيَّانُ ؟
وأين قرطبةُ دارُ العلومِ فكَمْ ... من عالم قد سَما فيها له شَانُ ؟
وأين حمص وما تحويه من نُزَه ... ونهرُهَا العَذْبُ فيَّاض وملآنُ ؟
قواعِدُ كُنَّ أركانَ البلادِ فما ... عسى البقاء إذا لم تَبْقَ أركانُ !؟
تبكى الحنيفيةُ البيضاءُ من أسفٍ ... كما يبكى لِفراقِ الإلف هَيْمانُ
على ديارٍ من الإسلامِ خالية ... قد أقفرتْ ولها بالكفر عُمرانُ
حيث المساجدُ قد صارتْ كنائسَ ما ... فيهن إلا نواقيسُ وصلبـــانُ
حتى المحاريبُ تبكى وهى جامدةٌ ... حتى المنابر تَرْثِى وهو عِيدانُ

يا غافلاً وله فى الدهرِ موعظةٌ ... إنْ كنت فى سِنَةٍ فالدَّهْرُ يَقْظانُ
وماشياً مرحاً يُلهيهِ موطنهُ ... أبعد حمص تغر المرءَ أوطانُ !؟
تلك المصيبةُ أنستْ ما تقدَّمها ... وما لها من طِوَال الدهرِ نسيانُ
يَا راكبينَ عِتَاق الخيلِ ضامرةً ... كأنها فى مجالِ السَّبْق عقبانُ
وحاملين سُيوفَ الهندِ مُرْهفةً ... كأنها فى ظلام النقع نيرانُ
وراتعين وراءَ النهرِ فى دَعَةٍ ... لهم بأوطانهم عِزٌّ وسلطانُ
أعندكم نبأ من أهل أندلسٍ ... فقد سَرى بحديث القوم ركبانُ
كم يستغيثُ بنا المستضعفون وهمُ ... قَتْلى وأسرى فما يهتز إنسانُ !؟
ماذَا التقاطع فى الاسلامِ بينكمُ ... وأنتم يا عبادَ الله إخوانُ !
ألا نفوسٌ أبيات لهَا هِمم ... أما على الخير أنصار وأعوانُ
يا مَنْ لذلةِ قومٍ بعد عِزهم ... أحالَ حالهم جَوْر وطغيانُ
بالأمس كانُوا ملوكاً فى منازِلِهِمْ ... واليوم هم فى بلاد الكفر عبدانُ
فَلَوْ تراهم حَيارى لا دليلَ لهم ... عليهم فى ثيابِ الذُّلِّ ألوانُ
ولو رأيتَ بكاهم عند بيعهمُ ... لهالَكَ الأمرُ واستهوتْكَ أحزانُ
يارب أمٌّ وطفل حِيلَ بينهما ... كما تفرق أرواح وأبدان
وطفلةٌ مثلُ حُسْنِ الشمس إذْ طلعَتْ ... كأنما هى ياقوتٌ ومَرْجانُ
يقودها العلْجُ للمكروه مكْرهةً ... والعينُ باكيةٌ والقلْبُ حَيْرانُ
لمثل هذا يذوبُ القلبُ من كَمَدٍ ... إنْ كان فى القلبِ إسلامٌ وإيمانُ

إن عروبة الأندلس التى بقيت ثمانية قرون أتت عليها الصليبية من القواعد ، ومنذ ظهر الاسلام والصليبية تستقتل فى مقاومته ، ولا ترى راحة ضميرها إلا فى الإجهاز عليه .

وقد واتتها الفرص فمحت الإسلام من الجزائر المبعثرة فى البحر الأبيض المتوسط ، ولم تدع فيها أثارة للعرب .

ثم اتجهت إلى شرق أوربا لتمحو الاسلام منه كما محته من غربها ، وكان سقوط « أدرنة » فى حرب البلقان انكساراً عسكرياً آخر للإسلام فى هذه القارة ، تبعته

مأساة أخرى تشبه مأساة الأندلس قبل خمسة قرون وهى مأساة جعلت الشاعر أحمد شوقى يرفع عقيرته بهذا النشيج المحزون :

يا أختَ أندلسٍ عليكِ سلام ... هَوتِ الخلافَةُ عنك والإسلامُ
نزلَ الهلالُ عن السماءِ فَلَيْتها ... طُوِيَتْ وعَمَّ العالمينَ ظلامُ
أزرَى به وأزالَهُ عن أوجه ... قدر يحط البدرَ وهو تمامُ
جُرْحان تمضى الأمتانِ عليهما ... هذا يسيلُ وذاكَ لا يلتامُ
بِكُما أُصيب المسلمون وفيكما ... دُفِنَ اليراعُ وغيب الصَّمْصامُ
لم يُطْوَ مأتمها ، وهذا مأتمٌ ... لبسوا السوادَ عليك فيه وقامُوا
ما بين مصرعها ومصرعك انقضتْ ... فيما نحبُّ ونكرهُ الأيامُ
خَلت القرونُ كليلة وتصرَّمتْ ... دولُ الفتوح كأنها أحلامُ
والدهرُ لا يألو الممالكَ مُنذِراً ... فإذَا غفلْنَ فما عليه كَلامُ

* * *

مقدونيا ــ والمسلمون ــ عشيرةٌ ... كيف الخؤلةُ فيك والأعمامُ
أترينهم هَانُوا . وكان بعزِّهم ... وعُلوِّهم يتخايَلُ الإسلامُ ؟
إذْ أنتَ ناب الليث . كل كتيبةٍ ... طلعتْ عليكَ فريسةٌ وطعامُ
ما زالت الأيامُ حتى بدلت ... وتغيَّر السَّاقى وحَالَ الجامُ
أرأيت كيف أُدِيلَ من أسدِ الشَّرى ... وشهدت كيف أُبيحَتْ الآجامُ ؟
زعموكَ هماً للخلافِة ناصباً ... وهَل الممالكُ راحةٌ ومنامُ ؟
يقول قومٌ كنت أشأمَ مَوْرِداً ... وأراك سائغة عليكِ زحامُ
ويراكِ داء الملك ناس جهالةً ... بالملك منهم عِلّة وسقامُ
لو آثروا الإصلاحَ كنت لعرشهمُ ... رُكْناً على هَامِ النجوم يُقَامُ
وهُمْ يقيد بعضهم بعضاً به ... وقُيودُ هذا العالم الأوهامُ
صُور العمى شَتَّى ، وأقبحها إذَا ... نظرت بغير عُيونهِنَّ الهامُ
ولقد يُقامُ من السيوفِ وليس من ... عثراتِ أخلاقِ الشعوبِ قِيامُ

* * *

صَبْراً أدرنة كُلُّ مُلْكٍ زائلٌ ... يوماً ويبقى المالِكُ العلّامُ

خفت الأذانُ فما عليكِ مُوحِّد ... يسعى ، ولا الجمع الحسان تُقَامُ
وخبتْ مساجدكُنَّ نوراً جامعاً ... تمشى إليـــه الأسْدُ والآرامُ
يدرجْنَ فى حرم الصلاةِ فواتناً ... بِيضُ الإزار كأنهنَّ حمامُ
وعفَت قبورُ الصالحين وفُضَّ عن ... حفر الخلائفِ جندلٌ ورِجَامُ
نُبشَتْ على قعساء عِزَّتُها كما ... نُبشَتْ على استعلائها الأهرامُ
فى ذمة التاريخ خمسةُ أشهرٍ ... طالتْ عليك فكلَّ يومٍ عامُ
السيفُ عار ، والوباءُ مسلَّطٌ ... والسَّيْل .خَوْف والثلوجُ ركامُ
والجوع فتَّاكٌ ، وفيك صحابةٌ ... لَوْ لم يجوعوا فى الجهاد لَصَامُوا
ضَنُّوا بعرضك أنْ يُباعَ ويُشترَى ... عِرْضَ الحرائر ليس فيه سوامُ
ضاقَ الحصارُ كأنما حلقاتُـه ... فلك ، ومقذوفاتُهَـا أجـرامُ
ورمى العدى ، ورميتهم بجهنم ... مما يصب الله لا الأقـوامُ
بعت العدو بكُلِّ شبر مهجة ... وكذا يُباعُ الملك حين يُرامُ
مازال بينك فى الحصارِ وبينه ... شُمُّ الحصونِ ومثلهن عِظامُ
حتى حَواكَ مقابراً وحويْتـه ... جثثاً فلا غَبْنٌ ولا استذمامُ

وجهد الصليبية اليوم فى فلسطين والجزائر يمثل الخطة الكبرى لدكِّ صروح الاسلام فى القارتين الكبيرتين آسيا وإفريقيا ، وضرب الأمة العربية ضربة قاصمة تردها إلى جاهليتها الأولى ، أوزاعاً من الخلق لا فكرة لهم ولا هدف ، بل لا كرامة لهم ولا كيان .

* * *

إن دراسة الوطن العربى فى نظرنا جزء من دراسة الوطن الاسلامى .

ولكنها تميزت بعنوان خاص لحكمة قد تلتمس لها . فإن الوطن العربى ليس جزءاً أى جزء من الكيان الاسلامى الرحب .

إنه مبعث الإلهام ، ومصدر التوجيه ومكان القيادة ، فلا غرو أن تُفرد لِتعرُّف أحواله كتب وبحوث .

ومع ذلك فإن السماحة التى اكتسبناها من إلف ديننا العظيم . جعلتنا نتناول

شئون هذا الوطن بمرونة نفسية وفكرية ظاهرة . فمن حديث عن المجتمع العربى ، كتب الباحثون هذه التقدمة التى تؤكد فهمنا له [1] .

« نحن معشر العرب نعتبر عربياً كل مواطن يقيم فى الوطن العربى ، ويدين له بالولاء ، وكل من يتكلم العربية ويتخذها لساناً ليعبر عما يجيش فى نفسه ، وكل مَنْ يحسن العروبة بصرف النظر عن الأصل والجنس ودون تفريق بين مغترب ومقيم ، ونحن حين نؤيد هذه الحقيقة إنما نقرر واقع التاريخ ، إذ لا فضل ـ فى مقياس العروبة ـ لنجدىٍّ أصيل على بربرى تعرَّب لسانه ، ولا لحجازى مغترب على زنجى اتخذ أرضنا وطناً له ، ولغتنا العربية لغة له .

والوطن العربى على هذا الأساس يشغل مساحة واسعة من وجه الأرض تمتد من المحيط الأطلسى فى الغرب حتى الخليج العربى فى الشرق .

ولا يقتصر على الجزيرة العربية وحدها وهى بلاد العرب الأصيلة ، ولا على الجزيرة فى الهلال الخصيب مكتنفاً فلسطين والأردن والإقليم السورى والعراق ، وقد عمرتها من قديم الزمان جماعات نزحت إليها من شبه الجزيرة العربية فى موجات متعاقبة ، فكونت على مرِّ السنين أقوام كنعان وفينيقيا وأشور وبابل ، وماقام فى وسطها من جماعات ، بل يشمل ذلك كله وما انبثق بفعل الفتح الإسلامى على امتداد الشمال الإفريقى فى تلاحق وتلاصق من خليج السويس إلى المحيط الأطلسى عبر الإقليم المصرى ، وليبيا وتونس والجزائر ومراكش ، وفى وسط القارة الإفريقية خلال بلاد النيجر وأوغندة ، وكينيا والصومال وزنجبار .

وإذا اتخذنا مساحات الدول العربية القائمة أساساً فى تحديد الوطن العربى لأربت مساحة هذا الوطن على مساحة القارة الأوربية ولو اجتمعت الدول العربية جميعاً فى دولة واحدة لكانت هذه الدولة ـــ من حيث الامتداد ـ الدولة الثانية فى العالم بعد الاتحاد السوفيتى (سابقاً) .

وجملة مساحة الدول العربية تقرب من ١١ مليون كيلو متر مربع ، يقع حوالى

---

(١) دكتور محمد متولى وآخرون .

٣٠٪ منها فى القارة الآسيوية ، وحوالى ٧٠٪ فى القارة الإفريقية ، وهى موزعة على النحو التالى :

آسيا ، وتشمل : سوريا ، ولبنان ، وفلسطين ، والأردن ، والعراق ، والمملكة العربية السعودية ، واليمن ، وعدن وعمان ، والبحرين وقطر ، والكويت ، والمحميات . وجملة المساحة ٣ مليون كيلو متر مربع .

ويعمر الأرض العربية نحو مائتى مليون نسمة ، ثلثهم تقريباً فى البلاد الآسيوية ، والباقون فى الدول الإفريقية ، ففى آسيا ، السعودية ، ويسكنها ٧ سبعة ملايين نسمة ، والعراق ويسكنه ١٦ ستة عشر مليوناً ، واليمن ويسكنه ١٢ اثنا عشر مليوناً ، والاقليم الشمالى [1] من الجمهورية العربية المتحدة ، ويسكنه ٩ تسعة ملايين ، وفلسطين المحتلة ويسكنها ٣,٥٠٠ ٠٠٠ ثلاثة ملايين ونصف المليون ، والأردن ويسكنه ٣,٥٠٠ ٠٠٠ ثلاثة ملايين ونصف المليون .

ولبنان ويسكنه ٢ ٠٠٠ ٠٠٠ مليونان ، وعمان ويسكنها ١٥٠٠٠٠٠ مليون ونصف ، والكويت ويسكنها ١٥٠ ٠٠٠ مليون ونصف ، والبحرين ٤٥٠ ٠٠٠ ويسكنها أربعمائة وخمسون ألفا ، وقطر ويسكنها ٣٠٠ ٠٠٠ ثلاثمائة ألف ، والامارات العربية المتحدة ويسكنها ١٤٠٠ ٠٠٠ مليون وأربعمائة ألف نسمة فيكون المجموع حوالى ٥٨ مليوناً يسكنون فى قارة آسيا .

وفى إفريقية : لاقليم المصرى من الجمهورية العربية المتحدة ٥٤ ٠٠٠ ٠٠٠ أربعة وخمسون مليون نسمة ، والسودان ١٧٥٠٠ ٠٠٠ سبعة عشر مليونا وخمسمائة ألف نسمة ، وليبيا ٤٠٠٠ ٠٠٠ أربعة ملايين ، والجزائر ٢٢٥٠٠ ٠٠٠ ويسكنها اثنان وعشرون مليوناً وخمسمائة ألف نسمة ، والمغرب ٢٣ ٥٠٠ ٠٠٠ ثلاثة وعشرون وخمسمائة ألف ، وتونس ٧٠٠٠ ٠٠٠ سبعة ملايين ، وجيبوتى ٤٠٠٠ ٠٠٠ أربعمائة ألف ، والصومال ٥٨٥٠٠٠٠ خمسة ملايين وثمانمائة

---

١ ـ صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب أيام الاتحاد بين سوريا ومصر

وخمسون ألفا ، فيكون المجموع حوالى ١٣٦ مائة وستة وثلاثين مليون نسمة .

وتعيش وسط المحيط العربى قلة لم تتعرب بعد ، وهى فى المجموع العربى لا تبلغ ١٠٪ من السكان .

وهذه القلة إما أصيلة فى البلاد كالبربر فى المغرب ، والزنوج فى السودان ، أو طارئة عليها كالأرمن والجركس والتركمان ، على أن اللغة العربية تظفر فى كل يوم بانتشار أوسع ، وتضيف اليها بالتدريج عدداً من هذه الأجناس » .

* * *

الواقع أن الأمة العربية بين المحيط والخليج تبلغ نحو المائة مليون .

ونسبة المسلمين تقرب من ٩٥٪ ، والـ ٥٪ الباقية موزعة بين أتباع النصرانية واليهودية والوثنية .

واللغة العربية هى الشائعة بين جمهرة السكان ، تخالطها لهجات عامية مختلفة . والخصائص الجنسية للعرب عادية أو هم يمتازون « باعتدال القامة وتناسق السحنة ، والبياض الضارب إلى السُّمْرة . وسباطة الشعر وسواده . واتساع حدقة العين وسوادها ، ثم بصفاء الذهن ، واتقاد الذكاء ، وسرعة الخاطر والحركة ، وقوة الخيال ، والقدرة على الاقتباس ، والفروسية والأريحية ، والصبر ، والثأر والتهاب العاطفة » .

ونستطيع أن نصف كثيراً من الأمم الأوربية والأمريكية والآسيوية والافريقية بأوصاف جامعة لكثير من ضروب الكمال المادى والمعنوى .

ومن ثَمَّ لا نستطيع الزعم بأن العرب جيل من البشر اختصته العناية العليا بمواهب فريدة . ويوم زعم هتلر للجنس الجرمانى هذه المزايا تضاحك العلماء فى كل قطر . وأيقنوا أن الرجل لا يقول الحق . وإنما يهزل .

إن فى العالم الآن عشرات القوميات . وهذه القوميات لا تعدو أن تكون أغصاناً فى شجرة الإنسانية الباسقة . يغذوها جذر واحد . وتنتشر فيها حياة

مشتركة ، وما يمتاز غصن على آخر إلا بما يحمله من ورق وثمر أو ما يقدمه من ظل وجنى ...

والعرب إذا نسبوا إلى قوميتهم لا يزيدون ولا ينقصون عن سواهم من الأمم ولكن الميزة التى ترفع قدرهم هى ما انفردوا بتقديمه للحياة والأحياء من الإسلام وخيراته ...

هذه الرسالة التى حملها العرب أفاءت عليهم من الأمجاد والآلاء ما لا يحصيه عدد !

وهنا مبحث آخر ، هل كان للعرب حضارة قبل الاسلام تنافس الحضارات الأخرى وتذكر معها فى ميدان الفخر والتكريم ؟

إن العروبيين يزعمون ذلك ، ويقولون إن الجنس العربى قبل الإسلام له مدنية عريقة ، بل هو من غير الإسلام له رسالة خالدة .

والحق أن هذا كلام مستغرب ! ولا يسع المرء حين يسمعه إلا أن يحملق دهشة ، ويبتسم ساخراً !. على أننا سنغالب شعور العجب والهزء ، ونتأمل فى أطواء هذا الكلام لنخرج خبأه .

أين هى مدنية العرب قبل الإسلام !

يحسب الدكتور عبدالرحمن البزاز ومَنْ على شاكلته من القوميين :

هذه حضارة لفراعنة ، وقرطاجنة فى أفريقيا وبابل وآشور فى آسيا .

وبديهى أن هذه الإجابة تتلاشى من تلقاء نفسها عند من يؤكدون أن الفراعنة وأهل قرطاجنة ليسوا عرباً ، وكذلك سكان بابل وآشور .

ويبقى العرب بعد ذلك بلا حضارة ، إلا ما تنسبه اليهم الدعوى المجردة ..

لكن الذين يطلقون كلمة عرب على الجنس السامى كله يصرون على أن هذه الفئات كلها عرب ــ واليهود على هذا الزعم عرب طبعاً ــ وبذلك يكون للجنس العربى تاريخ عريق ومجد مؤثّل ، ولسنا نستكثر على أمة ما أن تكون لها سابقة

مدنية ، بيد أننا نتساءل : كيف تكون حضارة الفراعنة مثلاً عربية !

إنهم يقولون : هاجر العرب من جزيرتهم إلى وادى النيل ، وأنشأوا تلك الحضارة .

ونقول : أكان المصريون القدماء فى مكانة الهنود الحمر ، وكان العرب المهاجرون فى مكانة الأوربيين النازحين إلى أمريكا .

إن المدنية الأمريكية لا تنسب بداهة إلى الهنود الذين كانوا يسكنون أمريكا قبل اكتشافها لأنها من صنع الفاتحين وحدهم .

فهل الحضارة الفرعونية عربية على هذا النحو !

قد يقول هؤلاء : نعم !!

ومن حقنا أن نتساءل : كيف تكون الجزيرة العربية الأم صِفْراً من الحضارات القديمة ، ويكون النازحون عنها فى العصور الخالية ابتغاء الرزق رسل حضارة !.

إن هذا هراء ...

وقد يركب بعضهم متن الشطط ويقول : إن الجزيرة العربية نفسها كانت منارة للعالم قبل مصر ويونان .

وعندما يبلغ الكلام هذا الحد من الهذيان فالسكوت أولى .

والواقع أن الصليبية الناقمة على الإسلام من وراء هذه المزاعم التافهة .

فإن أعداء محمد ورسالته يريدون إيهام الأغرار بأن الإسلام لم يصنع للعرب شيئاً .

لقد أتاهم وهم أصحاب حضارة لا أصحاب جاهلية ، فاستفاد من تقدمهم المدنى والعقلى فى غزو الأمم المجاورة وفرض نفسه عليها !

وليس العجب من القحة التى ترسل هذا اللغو ، بل العجب أن تقوم على هذا اللغو أحزاب تريد أن تقود العرب بعد أن تفصل تاريخهم عن الاسلام .

أى بعد أن تفصل تاريخهم عن بدنهم الروح ..

هكذا يصنع بنا الاستعمار ، هكذا يُقلب التاريخ ويُشوِّه الحق .

* * *

وإلى جانب الزعم بأن للعرب قبل الإسلام حضارة ، وأن الاسلام جاء طوراً من أطوار العقلية العربية الراقية أصلاً ، يوجد زعم آخر لا يقل إفكاً عن سابقه ، وهو أن للعرب رسالة غير الاسلام ...

وعندما يقول حزب البعث العربى : « أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة » يتساءل الناس :

ماهى الرسالة الخالدة التى يحملها العرب ويقدمونها للناس ؟

إن الذى يتبادر إلى أذهان الأصدقاء والخصوم جميعاً ، أن هذه الرسالة ليست شيئاً آخر غير الاسلام .

لكن السيد ميشيل عفلق مؤسس حزب البعث العربى يقول لنا كلاماً آخر يؤكد فيه أن للعرب رسالة أخرى تقوم على فهمهم الصحيح لأنفسهم وإدراكهم الجرىء لقضاياهم وتحررهم ـ بقواهم الخاصة ـ من الاحتلال الأجنبى !

هذه فى نظره رسالة العرب الخالدة !

ومن الخطأ الظن ـ هكذا يُفهمنا السيد ميشيل عفلق ـ بأن رسالة العرب الخالدة هى حضارة وقيم معينة يقوم العرب بتبليغها للأمم الأخرى عندما يبلغون مستوى القدرة والارتقاء ، وخير لنا وللقراءُ أن ننقل كلام مؤسس البعث العربى بنصه فهو كافٍ فى تبيان مقاصده وأهدافه .

قال ـ لا فُضَّ فُوه ـ ص ١٠٩ من كتابه « فى سبيل البعث » !

(طالما وُجِّه إلى أعضاء الحركة وَأصدقائها السؤال : عما نعنى بالرسالة الخالدة !. وكنت دوماً أجيب جواباً بسيطاً لهؤلاء الذين يظن أكثرهم أن الرسالة العربية الخالدة هى حضارة وقيم معينة يستطيع العرب فى المستقبل عندما يبلغون المستوى الراقى السليم المبدع أن يحققوها وينشروها بين البشر ، واعتبرت هذه

النظرة بعيدة عن الحياة وعن التجربة ورأيت أنهم يحسبون الرسالة شيئاً جامداً منفصلاً عن نفوس أبناء الأمة وحياتها وتجاربها ، فكنت أجيب دوماً بأن رسالة العرب الخالدة ليست للمستقبل وإنما هى الآن فى طور التحقيق . إنها هذا الإقبال من العرب على معالجة مصيرهم وحاضرهم معالجة جدية جريئة .

وهذا القبول بأن تكون نهضتهم نتيجة التعب والألم . هذا التحسس بالآفات والمفاسد التى انتابت حياتهم ومجتمعهم ، هذه الصراحة فى رؤية عيوبهم ، هذه الجرأة فى الاعتراف بها ، هذا التصميم الرجولى على أن ينقذوا أنفسهم بقواهم الذاتية غير معتمدين على قوى أجنبية أو على سحر . هذه التجربة المرَّة المملوءة بالكوارث ، هذا الحاضر الذى يحياه العرب الآن هو بَدْء الرسالة الخالدة) ...

الإحساس بالآفات والتصميم الرجولى للشفاء منها هو معنى الرسالة الخالدة !

ما أهون الخلود فى منطق هؤلاء الناس !

إن حاجة العارى إلى ثوب يكسوه ، أو حاجة الجائع إلى رغيف يشبعه ، حاجة الأمة المقيدة إلى الحرية التى تكسر القيود ، والأمة المفرقة إلى الوحدة التى تجمع الصفوف ، كل هذا لا يليق أبداً أن يُسمَّى رسالة خالدة .

وإلّا فإن الأمة ستُصاب بالعطل والفراغ بعد أن تنال حريتها وتحقق وحدتها .

إن كلام « ميشيل عفلق » فى شرح الرسالة العربية الخالدة لا يحمل فى أطوائه ذرة من منطق .

إن هذا الكلام لو قاله زعيم سياسى ف أنجولا أو الكونغو يُصوِّر به رغبات قومه فى الحرية ووسائلهم فى الكفاح ما جاوز به واقع أمته المتطلعة إلى مستقبل أفضل ، لكن تسمية هذا الكلام شرحاً لمعنى الرسالة الخالدة... هو الشىء الذى يستحق الضحك ، والإغراق فيه إلى حد القهقهة .

أى رسالة خالدة شرحها هذا الكلام ؟!

إن الشىء الوحيد الواضح فى هذه السطور هو صرف الأذهان بجرأة وإصرار

عن الحضارة والقيم التى تميّز العرب بحملها طوال تاريخهم العريق ، أى صرفها عن الإسلام .

وهو يمضى فى هذه اللجاجة فيقول فى ص ١٥٩ تحت عنوان الرسالة الخالدة :

(يحسب البعض أن الرسالة شيء جامد وأنها عبارة عن أهداف منفصلة عن الحياة ، وينتظرون يوماً من الأيام أن تستطيع الأمة العربية بلوغ المستوى الذى يؤهلها لحمل هذه الرسالة ، إن الرسالة العربية الخالدة بادئة منذ الآن ، فهى ليست شيئا منفصلاً عن العرب فى هذه المرحلة القاسية المملوءة بالأمراض .

الرسالة العربية بدأت منذ أن بدأ العرب ، وبخاصة منذ أن بدأ الجيل الجديد يدرك بجرأة ووعى أن حياة الأمة العربية لا يمكن أن تستمر فى هذا الطريق المعوج المنحدر ، وإنه لا بد من حركة إنقاذ ، أى لا بد من الانقلاب الشامل .

عندما بدأ العرب يواجهون مشكلاتهم بجرأة وصدق وصراحة ، ووثقوا بأن حل هذه المشكلات سوف يأتى من داخلهم لا من معجزة أو من دولة خارجية ، وإنما بتعبهم وثباتهم ، عندها بدأت الرسالة الخالدة تتحقق على الأرض العربية .

فنحن لا نفهم من الرسالة أنها الحضارة التى لا نستطيع الآن تحقيقها .

يؤسفنا أن نقول : إنه لا تحصيل لمعنى محدود وراء هذا اللفّ والدوران إلا إبعاد العرب عن إدراك المبادىء والقيم والأخلاق والشرائع التى احتواها الإسلام العظيم .

ونقل بها الناسَ قاطبة ـ لا العرب وحدهم ـ من الظلمات إلى النور .

إن الله قال للعرب فى كتابه الكريم بعدما شرَّفهم بالإسلام .

﴿ كنتُم خيرَ أمةٍ أُخرِجَتْ للناسِ . تأمرُونَ بالمعروفِ وتنهَوْنَ عن المنكرِ وتُؤمنون بالله ﴾ [1] .

---

(١) آل عمران : ١١٠ .

وهذه الجمل الواضحة تكشف للعرب عن وظيفتهم فى الحياة ورسالتهم بين الناس .

إن حراسة الفضائل ونشر شعارها ، ومحاصرة الرذائل وطى عارها ، والالتفاف حول الإيمان بالله وحده وقمع الإلحاد والعوج ، وتسخير قوى الأمة كلها لبلوغ هذه الأهداف الإنسانية ، هو رسالة الأمة العربية .

لكل أمة أن تطلب لنفسها الحرية ، ولكن هذه ليست الرسالة الخالدة لأمة من الأمم . إنها رسالة موقوتة ، أو بتعبير أصح حاجة موقوتة وليست رسالة .

الرسالة أن تحمل أمة من الأمم معنى عظيماً فتسديه للآخرين الذين يفتقرون إليه ! إن طلب القوت أو طلب الأمن ليس رسالة خالدة أو غير خالدة .

أما سوق العدالة للمظلومين والحرية للمضطهدين ، واليقين والتقوى للشّاكين الماجنين وتعريف البشر بربهم ، بعد تحريك مواهبهم الإنسانية الخاملة ، فهذه هى الرسالة الخالدة حقاً .

الرسالة التى يريد حزب البعث العربى صَرْفَ العرب عنها تحت عنوان تحريرهم وتوحيدهم ! يا عجباً ، وهل وحَّد العرب إلا الإسلام ، وقد كانوا قبله طرائق قِدداً وأشلاء بدداً؟!!

وهل حررهم إلا الإسلام وقد كانوا قبله أصفاراً فى التاريخ وعالة على أممه الكبرى أو عبيداً يزحمون مستعمراتها فى آسيا وأفريقيا !

إن الأسلوب الذى يفسر به البعثيون رسالة العرب الخالدة قد يخضع أحياناً للطبيعة الإسلامية التى صبغت العروبة يوم قُدِّرَتْ لها حياة .

لكنه سرعان ما ينفلت منها ، ويتمرد عليها ويعود للمكابرة الممجوجة التى يخدم بها البعثيون الغرب الصليبى والشرق الشيوعى على سواء .

واسمع إلى « ميشيل عفلق » يُسوِّى [1] بين الإسلام وبين غيره من مراحل التاريخ

(١) سئل حاجب المحكمة : كم راتبك ؟ فقال : آخذ أنا والقاضى ١٢٠ جنيها وهكذا يجتمع قانون حمورابى والتشريع الإسلامى فى تاريخ عربى واحد .

العربى ، ثم كيف يوسوس إلى قرائه بأن الماضى العربى يمكن الخلاص من بعضه وتقويم بعضه الآخر : يقول فى ٧٧ ، ٧٨ :

(فهذه الأمة التى أفصحت عن نفسها وعن شعورها بالحياة إفصاحاً متعدداً متنوعاً فى تشريع حمورابى وشعر الجاهلية ودين محمد وثقافة عصر المأمون ، شعور واحد يهزها فى مختلف الأزمان ، ولها هدف واحد بالرغم من فترات الانقطاع والانحراف .

ولكن هل يستتبع تبنينا لماضى الأمة واعتبارنا أنه يؤلف وحدة حية مع حاضرها ومستقبلها أننا نوافق عليه وعلى كل ما جاء فيه ، وهل حياة الأمة مُسيَّرة بقدر خارج عن إرادتنا وأن كل مرحلة هى نتيجة حتمية للمراحل التى سبقتها ؟ إن على الأمة أن تسهم إلى حد بعيد فى خلق مصيرها ، فإذا انحرفت عنه وتلاشت مساهمتها فى صنع قدرها فإنما ذلك لمرضى طارىء تجب معالجته ، فهذا الماضى كان يمكن أن يكون لبعضه خلاف ما كان ، ولبعضه الآخر أن يكون أقوى وأكمل مما كان !

نحن سادة مصيرنا وصانعو قدرنا ، ندرك إدراكاً عميقاً أن الأمة الحية هى التى تحيا الآن والتى ينفسح أمامها مجال الحياة للمستقبل ، وأنها الأمة التى تخدم ماضيها باستخدامها إياه لا باستسلامها له .

والأمة الحية تنمو وتتكامل ويكون ماضيها مهما سما دون حاضرها ، ويكون مستقبلها أمامها لا وراءها .

ولا تعليق لنا على هذا الكلام إلا أن العرب يَوْمَ يؤدون رسالتهم التى اصطفتهم العناية لها فسوف يجمعون المجد من أطرافه .

وهذه الرسالة برغم أنف ـ ميشيل عفلق ـ هى مبادىء وقيم ومقاصد وأهداف وحضارة وتشريع » أى هى جميع المعانى التى يحاربها البعثيون عندما يتنكرون للإسلام ويرفضون وَحْيَه ويردون عقيدته وشريعته ...

وفيما قرأنا ـ لميشيل عفلق ـ نموذج لهذا الرد المكابر العجيب !!.

ماذا كان العرب قبل الإسلام ؟

شعب من عشرات الشعوب التى تسكن هذا الكوكب الموار .

ربما كانوا مثل شعب « شيلى » فى أمريكا ، أو شعب « كينيا » فى أفريقيا ، أو شعب « كمبوديا » فى آسيا ، أو شعب « السويد » فى أوروبا .

لكن العرب لما نفخ فيهم الإسلام من روحه تحولوا من شعب محدود إلى قارة بأسرها ؛ لا بل تحولوا إلى عالم يموج بالنور والحضارة ، وتجلس الشعوب فى حضرته لتتلقى الدروس من وحى السماء ...

وشىء آخر يجب أن يُعرفَ فى أصل العروبة ، أن كلمة قومية لم تجىء فى مصطلحات العرب رمزاً للمعنى الذى تُعرف به الآن ، معنى الولاء للجنس ، والتعلق به وحده ، والتعصب على غيره .

فكلمة (قوم) فى اللغة تعنى جنس الرجال ، قال الشاعر :

وما أدرِى ولستُ إخالُ أدرِى أقومٌ آل حصين أمْ نِساءُ

وقال الله تعالى فى كتابه العزيز : « **يا أيُّها الَّذين آمنوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِن قَوْمٍ عسى أنْ يَكُونوا خَيْراً مِنهُمْ ولا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ عَسَى أنْ يكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ** »[1] .

فقوم هنا وهناك تعنى الرجال وحدهم ، أما إطلاقها لتدل على المصطلح السياسى المعاصر ، فليس إطلاقاً عربياً ، بل الإسلام هو الذى خلق من العرب فى جزيرتهم أمة تخضع لحكم منظم ، وتقوم بينهم دولة يصح أن تحسب فى المجال الدولى ، أما قبل الإسلام فإن العرب أنفسهم لم يكونوا يعرفون هذا المصطلح فى حياتهم الاجتماعية كما أنهم لم يعرفوه فى مدلولاتهم اللغوية ...

ومن حقنا أن نقول : إن الأمة العربية بشارتها الجديدة ، واجتماعها لأول مرة فى تاريخها ، ثم بروزها فى الصعيد العالمى ، لم تولد إلا مع الإسلام .

وتصور الأمة العربية بدون رسالتها العظمى كتصور قصب السكر بدون سكر .

ماذا تكون عيدان القصب بعد اعتصارها وإفراغ ما فيها . هشيماً تذروه الرياح ، أو وقوداً تأكله النيران !

الرسالة التى شرفت بها العروبة ليست زعماً بنقاوة الدم ، أو وهماً بكرامة

---

(١) الحجرات : ١١ .

العنصر ، كلا ، إنها رسالة إنسانية تجعل الأمة العربية حارسة للأخلاق والمثل العليا ، أمينة على تراث السماء وصيانة الوحى ، والدفاع عن قضاياه وأحكامه ، ضد المنحلين والمكذبين .

وهذا معنى قوله جل شأنه : « **كُنْتُم خَيْرَ أُمَّة أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تأْمُرُوْنَ بالمَعْرُوفِ وتَنهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَتُوْمِنُونَ بالله** »[1] .

أجل .. تلك هى وظيفة الأمة فى العالم .. مؤازرة الخير ومناصرة أهله ، مكافحة الشر وقمع أسبابه ، العيش فى حدود الإيمان الطيب فليس فى ربوعها مكان لإلحاد ولا لفسوق وعصيان ...

هذه هى رسالة الأمة العربية .. وتلك هى الصبغة التى ينبغى أن تسود وطنها الكبير .. إنها تتجلى :

فى ربط العروبة برسالتها العظمى .

وفى ربط العرب بماضيهم العريق .

وتمهيداً لمستقبل أكرم ، تنطلق إليه نهضتنا وهى مزودة بجميع القوى التى توصلها إلى هدفها .

ودعماً لمشاعر التدين ، أو بعبارة أصرح ، إثباتاً لملامح الإسلام فى كيان نهضتنا العربية كى تتسق مع ماضيها ، وتتواءم مع أحوال بنيها ، كتب الأستاذ محمود تيمور يقول :

لسائل أن يقول :

هل يكفى أن تكون العروبة قرابةَ دم كريم ؟

وهل يكفى أن تكون العروبة ذكريات أمجاد عطرات ؟

وهل يكفى أن تكون العروبة تاريخاً مشتركاً له فى التاريخ صدى بعيد ؟

وهل يكفى أن تكون العروبة وحدة فكرية لها وشائج متينة على تعاقب الأزمنة والعصور ، وعلى تخالف البقاع والأصقاع ؟

وهل يكفى أن تكون العروبة تياراً حضرياً مشهوداً له بالفضل على بنى الإنسان فى غابر الزمان ؟

---

(١) آل عمران : ١١٠ .

ليس يكفى هذا كله لتكوين مقومات للعروبة تتابع بها حياتها ونموها وازدهارها فى المستقبل القريب أو البعيد .

إن هذا كله إنما هو تاريخ يُسْرِدُ ، فيهز أعطاف النفس من اعتداد وإعزاز ، وهو إن صلح إنما يصلح لدعوة خطابية توقظ المشاعر وتبعث فى أعماق الوجدان روح الإيمان .

وكل هذا يجب ألا يقف عند الحد ، وإنما يجب أن يكون حقيقة يدعو إليها الواقع ، وأن يكون عنصراً حاضر الأثر ، موصول الفائدة ، واضح الضرورة لحياة العرب فى يومهم الراهن ، وفى غدهم المرجو . وإلا لأصبح هذا كله هتافات نفسية عابرة ، وهزات عاطفية خاطفة ، فاقدة الأثر الايجابى ، والنفع العلمى ، فى الحاضر المشهود أو المستقبل المرموق .

ولكى نبلغ الغرض من حقيقة العروبة ومن مقوماتها علينا أن نحيى تلك الحضارة العربية المتكاملة إحياء مهجياً دراسياً فى كل منحى من مناحيها ، وفى كل فن من فنونها ، وأن نفقه فلسفتها وأسرارها أحسن الفقة وأتمّه . حتى يكون ذلك التكامل الحضارى العربى بالأمس زاداً للعروبة فى اليوم وفى الغد ، منه يتكوَّن حاضرها كثير من مقوماتها العقلية والروحية معاً » ا هـ .

على أن التكوين الروحى والعقلى للحضارة العربية لا يعنى شيئاً أبعد من تعاليم الإسلام .

وعندما نحصى عناصر الزاد العلمى والخلقى الذى سنغذى به الأجيال البعيدة .

وعندما نحصى تقاليد البيئة أو مبادىء السير التى تنطلق منها القافلة الناشطة .

وعندما نضع أصول الدساتير وشرائع القانون التى ستحكم الجماهير وتضبط العلاقات الخاصة والعامة .. لن نجد غير القرآن الكريم ، وسنة محمد ، وفقه الأصحاب ، واجتهاد الأئمة ، وذاك السنا الفياض من توافر القوى المؤمنة على تكريس أوقاتها ومواهبها فى خدمة الإسلام وإعلاء شأنه وهداية الخلائق به على أنه الوحى الأعلى ، والحق المبين ..

ويستطرد الأستاذ تيمور فيقول شارحاً هذا التراث :

« يذكر لنا التاريخ القريب أنه حين أريد ترجمة قانون « نابليون » ليكون

قانوناً ينظم علاقات الناس فى أوضاع الحكم المصرى ، انبرى عالم أزهرى فألف كتاباً ضخماً استخرج فيه من المذهب المالكى أحكاماً تغنى عن القانون الفرنسى كله .

وأن فقيهاً آخر من رجال القانون انبرى هو أيضاً فألف كتاباً استخرج فيه مثل هذه الأحكام على مذهب « أبى حنيفة » .

وفيما عمله كلاهما دليل على أن الفقه العربى الخالص للشريعة الدينية لم يقصر عن إدراك مايفتقر إليه المجتمع البشرى من قوانين تحكم المعاملات وتنظم العلاقات .

ولعل هذا الفقه العربى الخالص أَوْلَى أن يكون لنا رائداً ونبراساً ، فإن العقلية العربية لها معاييرها وقيمها فى رسم أوضاع المجتمع ، وفى بيان الحقوق والحدود .

فإذا اقتبسنا مهما لحياتنا الحاضرة كان ذلك وحياً فعالاً عميق الأثر ، به نتجافى عن اصطناع مصادر أجنبية دخيلة ، محاولين التلفيق بينها وبين عقليتنا التقليدية بأوضاعها الخاصة .

والواقع أن المثالية العربية ، أو مايسمى (الإيدولوجية) تتوهج خصائصها فى تلك التعاليم الدينية التى ضمتها مذاهب الشريعة ، وسُمِّيتْ بالفقه وبالأصول ، وماهى إلا المبادىء التى اهتدت بها الحضارة العربية فى حكم المجتمع الإنسانى ، وعلى كل عربى اليوم أن يعرف هذه المثالية أتم المعرفة بجانب مايعرف من مثاليات محدثة فى تعاليم المدنية ونظم الاجتماع .

وما ينبغى لنا نحن العرب اليوم أن ندرس مظاهر الخدمة الاجتماعية فى أساليبها المستحدثة وأوضاعها الأجنبية ، دون أن ندرس مع ذلك مايقابلها من مظاهر تنطوى عليها حضارتنا العربية فى العصور المواضى .

فإزاء الملاجىء ودور الحضانة والكفالة فى العصر الحاضر ، كانت لنا فيما سلف أنظمة للمراحم والمبرات ، توقف عليها الأوقاف المغلة ، وتُرصد لها الأموال الطائلة ، وكانت تكفل فى عهدها ماتكفله أوضاع الخدمة الاجتماعية فى طورها الحديث .

منذ سنوات قلائل عقدت الجامعة العربية حلقة موضوعها . « التكافل الاجتماعى » واشترك فى هذه الحلقة خبراء من هيئة الأمم المتحدة فأتيح لهم أن

يطلعوا على ماعرض فى هذه الحلقة من أنظمة عربية مستمدة من الشريعة للتآزر بين الناس ، كضروب الزكاة وأنواع النفقات .

فقالوا للباحثين العرب : ماحاجتكم إلى أوضاع مستحدثة ، وفى تراثكم الدينى والاجتماعى هذه الأنظمة الوافية للتكافل والتضامن لو احتللتموها محل التنفيذ !

وماينبغى لنا نحن العرب أن ندرس ألوان النشاط الرياضى العصرية دون أن نتعرف ماياظر هذه الألوان فى حياة الأمة العربية خلال الأحقاب الطوال .

ولعلنا نعلم أن الفروسية والرماية والسباحة ، كانت من عناصر الحياة التعليمية ، وكان لها من المنزلة فى زمن الفتوة ماللعلوم التجريبية والنظرية سواء بسواء ، إذ إن التقويم الإنسانى فيما يرى المفكر العربى إنما يتم بإعداد الجسم والعقل والروح جميعاً » .

وحدتها :

أمة العرب موحدة فى الأرض منذ وحدت الله فى السماء ، وهى ما انقسمت على نفسها إلا يوم أخلّتْ بعهودها مع الله وتراجعت إليها بقايا من الجاهلية الأولى .

والمتأمل فى تاريخ هذه الأمة لا يعوزه الذكاء كى يلمح أن الخط الفاصل بين العصر الإسلامى والعصر الجاهلى فاصل بين شرك وفُرْقة معاً ، وتوحيد ووحدة معاً ..

والعلماء جميعاً متفقون على أن الجزيرة العربية لم تعرف الوحدة السياسية إلا بعد أن غمرتها أضواء الإسلام .

وتلك طبيعة هذا الدين الحنيف فى خلقه أمة لا مكان للانقسام فى صفوفها ما دامت متمسكة بأهدابه ، حريصة عليه .

وما صح فى نطاق الجزيرة العربية على عهد النبوة صح فى فجاج الوطن العربى الرَّحْب بعدما انداحت جيوش الإسلام فى أرجاء آسيا وأفريقيا .

إن الوحدة التى سادت هذه الربوع من المحيط إلى المحيط بلغت من العمق والشمول حداً يثير العجب .

لو أن إنساناً امتطى « نفاثة » تسير بسرعة الضوء لا بسرعة الصوت وراقب هذه الأمة عند انفلاق الفجر لرأى أفرادها زرافات ووحداناً منطلقين إلى المساجد ، ولسمع هدير المؤذن « الله أكبر الله أكبر » من المنارات السامقة المبعثرة فى العواصم والقرى من المحيط إلى المحيط ..

هذا المنظر الساحر المتكرر منذ أربعة عشر قرناً على أجزاء اليوم لا يختلف مكان عن مكان ولا جيل عن جيل .

إن هذه الوحدة التى سكبها الإسلام فى ضمائر المؤمنين جعلتهم فى شئونهم كلها إحساساً جامعاً وفكرة مشتركة ، وسترى عناصر هذه الوحدة التى يصدق فيها قول الحق :

« **إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون** » (١)

* * *

شهدت أقطار الوطن العربى فى أغلب تاريخها حكومة واحدة .

وربما وقعت أحداث عكرت هذه الوحدة السياسية ، ولكن العرب كانوا يرون هذه الأحداث أعراضاً موقوتة ، أو سحائب صيف توشك أن تنقشع .

ولم يعرف العرب مُذْ ولدت دولتهم الكبرى نكراً كالذى حدث لوحدتهم السياسية فى هذا العصر .

فقد اتفقت مآرب الاستعمار الغربى مع شهوات نفر من طلاب الرياسات فقسموا هذه الأمة الواحدة إلى أجزاء منفصلة سياسياً تبلغ بضع عشرة حكومة !

ولو استطاعوا أيضاً لجعلوها بضعة وعشرين أو بضعاً وثلاثين .

فإذا لم تكن للحكومة المفتعلة تملك الموارد المالية التى تقيم كيانها المحدود تصدقوا عليها بأعطية تقيمها ، وتجعلها دولة مستقلة ذات سيادة !!

ولن تصلح الأمور أبداً بهذا العوج المتعمد . فإن طبيعة الأمة الواحدة تأبى ذلك التمزيق ، وطبيعة الرسالة الضخمة التى تحملها تأبى ذلك التمزيق .

وعصرنا هذا ليس عصر الدول الصغرى ، بله الدويلات المصغرة .

---

(١) الأنبياء : ٩٢ .

ففى أيام ملكت الشيوعية فيها أرضاً أكبر من أرض الوطن العربى ووحدات سياسية كثيفة تجعل من الصين وعدد سكانها ١٢٠٠ مليون دولة واحدة ، ومن روسيا وعدد سكانها ٤٠٠ مليون دولة واحدة ــ فى هذه الأيام يصح تقطيع أوصال أمة واحدة ، وجعل المليون عربى دولة واحدة ، والمليونين دولة أخرى وإقامة حوائل سميكة بين هذه وتلك ، وبين هاتين وسائر الأجزاء حتى لا تتجمع فى نطاق واحد .

إن الخلافة الإسلامية فرضت حكومة مركزية واحدة لهذا الوطن الكبير .

وعند التأمل نجد أن الدفاع العسكرى عن أى جزء من هذا الوطن لا يصلح ولا ينجح إلا إذا عاونته بقية الأجزاء .

فنجدة الجزائر تنبع من وادى النيل والفرات ، ونجدة فلسطين تجيئها من أقصى الجنوب والغرب .

وما استمكن الأعداء من تثبيت أقدامهم فى قطر من أقطار العروبة إلا إذا كان هناك من الانقسام السياسى ما يتيح للغزاة أن يبطشوا وعليهم درع من خيانة الخائنين وتفريق المفرقين .

ونحن ننظر إلى نظام الخلافة من خلال الدعايات الشائنة التى روَّجها ذوو الأغراض ، أو من خلال الأحوال السيئة التى حفَّت به أيام اعتلاله .

وهى دعايات ضخَّمَت الهبات وأخفت الحسنات .

وينبغى ألا ننسى لهذه الخلافة المظلومة أنها :

(أ) حالت دون افتعال عشرات الإمارات والدويلات المستقلة فى هذه الأمة الواحدة ، وتلك الإمارات والدويلات التى تحيا دائماً على استنزاف الشعوب وخيانة مصالحها ومعاونة الأجنبى ومساندة أطماعه .

(ب) قَوَّتْ شعور الإخاء والتناصر بين أهل هذا الوطن الواحد على اختلاف الدار وبُعْد الشُّقَّةِ ، وجعلت العربى فى حضر موت مسئولاً عن نصرة أخيه فى السنغال .

(جـ) جعلت ولاء الأفراد للدولة صادراً عن ضمير دينى مخلص ، فكان العربى ، مع طاعته لله ، يطيع التعليمات والأوامر التى تكلفه السلطات بها ويتحاوز عن الأخطاء التى تقع حرصاً على مصلحة الجماعة العليا .

أصحيح أن نظام الخلافة استنفد ما يُرْجَى منه ؟

إن الإجابة على هذا السؤال تتطلب منا أن نعرف أولاً :

هل الهجوم الذى تعرضت له العروبة فى الأعصار الأخيرة خلا من الأحقاد الدينية ، واقتصر فقط على المطامع الدنيوية ؟

فإذا تبين أنه استعمار تتواصى زبانيته بإكنان الغلّ على رسالتنا وتتعاون سراً وجهراً على انتهابنا وإيذائنا ، فإن توحيد الأمة العربية حول خلافة دينية حديثة أمر تفرضه ضرورات الدفاع المقدس كما تفرضه نصوص الإسلام ....

الوحدة التشريعية :

ظلت الأمة العربية قرابة ألف سنة والإسلام مصدر قوانينها فى شئون الأسرة والمجتمع ، وفى شئون الدماء والأعراض والأموال .

وإذا كان هذا التشريع لم يفرغ فى مواد محددة كما هو الواقع الآن ، فإن مصادر هذا القانون كانت بثباتها وقداستها توصى بأحكام واحدة فى طول البلاد وعرضها ، وتجعل الخاصة والعامة يعرفون ماتوصى به الشريعة فى أغلب مايعالجون من أحوال الحياة ...

والقرآن واحد ، يهْدِر القراء بآياته فى القرى والمدن ، ولا تختلف ألفاظه فى حاضره ولا باديه .

وسنة النبى فى كتبها المعروفة يتداولها النساخون والطباعون ، ويتدارسها العلماء فى المساجد والمدارس .

ومذاهب الفقهاء المشهورين ، تتألف لها الحلق وتستفيض فيها البحوث .

وقد تعجب إذا علمت أن كتاباً فيه خلاصة لفقه الإمام مالك يكاد يكون المرجع الفقهى لثلاثين مليوناً من المغاربة !!

إن وحدة الفكر التشريعى فى هذه الأمة على كَرِّ القرون شىء يستثير الدهشة . ومنذ أربعة عشر قرناً والكبار والصغار يحفظون أن أدلة الأحكام هى الكتاب والسنة والقياس والإجماع ..

وقطاع واحد من تراثنا التشريعى يرجع بما أثر عن الرومان واللاتين وغيرهم من تشريع ، بل يرجح كل ما استحدثه هذا العصر من مبادىء ونظريات .

وهذا كلام لا يُرسَلُ على عواهنه ، فإن التشريع عندنا سماوى الأصول ، جاء

من لَدُن حكيم خبير ، فعنصر الحق موفور فى هذا التشريع ابتداء :

« **وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثاً** »[1] .

ثم إنه نقى الأهداف ، ينفى الخبث عن الفرد والجماعة ، ويشد أزر المثل العليا حين يقمع طبائع الأثرة ، والفسوق و العدوان ، فهو ليس فقط تنظيماً لأعمال جماعة ما ، بل هو تزكية لها ، وارتفاع بمستواها .

« **وَاللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيكُمْ وَيُرِيدُ الذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلوا مَيْلاً عظيماً** »[2] .

ولن ترقب أبداً نتائج أفضل ، ولا عواقب أشرف من تحكيم الله فيما يشجر بين الناس . إن هذا التحكيم أصون للمصالح من غيره ، وأحسم للشرور والمتاعب .

« **وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُون** »[3] .

وقد ازدهر الفقه دهراً طويلاً فى بلادنا ، ورستْ عليه دعائم الوحدة التشريعية .

ثم ركدت ريحه ، وقَلّ أهله ، وضَعفَ أمره .

فلما سقط العرب والمسلمون فرائس للغزو الغربى ، شاعت فى أرجاء الأمة المحروبة ألوان من التشريع مبتوتة الصلة بطبيعة العرب ، وتعاليم الإسلام .

بعضها لاتينى ، وبعضها سكسونى ، وبعضها لا يُعرف له أصل .

ومع غرابة هذا القانون المجلوب عن أمتنا وبيئتنا ، فإنه كثيراً ما يحيد عن الحق ، ويعجز عن الكمال ، ويقصر عن رعاية الصالح الخاص والعام .

ولن نبقى عرباً ، بل لن نكون عرباً إذا ارتضينا زوال تشريعنا الأصيل ، واستقرار هذا التشريع الوافد مع الغزو الأجنبى .

إن هذا التشريع يستهدف إرخاص الأغراض والدماء ، وابتذال الحرمات والحقوق ...

وهو ـ بهذا الطابع ـ يناقض طبائع العرب الذين يغالون بالأعراض ، ويبذلون دونها الدماء .

---

(١) آية ٧٨ النساء .

(٢) آية ٢٧ النساء .

(٣) آية ٥٠ المائدة .

ويغالون بحق الحياة ، ويجعلون الثأر ديناً لهم إذا لم تسعفهم السلطات بإقرار القصاص .

وقانون ـ تلك خصائصه ـ إنما وُضِع ليقتل الشخصية العربية ويفقد هذه البيئة أعرق ماورثت ، ولذلك يستحيل أن تتم الوحدة العربية فى ظلال تلك القوانين المجتلبة السيئة .

ويجب أن أنقل كلاماً حسناً فى المقارنة بين الشريعة والقانون لرجل [1] من أعلام القضاء ، عاش ردحاً من الزمن يعالج تطبيق هذه القوانين الفرنسية فى أمتنا العربية ، فكتب بحثاً جليلاً عن « نهج الشريعة والقانون فى تطبيق الأحكام » قال فى صدره ـ واصفاً بعض مواد القانون الحالى ـ : إن المشرع الذى وضع أحكامها كان فاجراً ، فقد نقل بغير تبصر عن التشريع الفرنسى أحكاماً لا تساير البيئة التى نعيش فيها ولا تتفق مع تقاليد بلادنا .

فعنده مثلاً ، أن الاعتداء على العرض عمل مباح متى جاوزت المرأة الثامنة عشرة ، وكانت المواقعة برضاها ، ولا تثريب عليها لو ظهرت بين الناس تحمل ثمرة الفاحشة فى أحشائها ، أو حملت وليدها من سِفاح بين يديها .

ولا سلطان لولى هذه المرأة عليها ، مع أنها تعتبر من وجهة نظر المال قاصرة لا تملك التصرف فيه إلا بعد بلوغها الحادية والعشرين . ومعنى هذا ، أن المال فى نظر القانون أغلى من العرض ، إذ حرص الشارع على حمايته وفرض الرقابة عليه حتى يبلغ صاحبه سن الرشد ، بخلاف العِرْض الذى أباح لصاحبه أن يفرط فيه ابتداء من سن الثامنة عشرة .

وقد اتخذت هذه الظاهرة أساساً لهذا البحث ، وأول مايسترعى النظر عند إجراء المقارنة بين الشريعة والقانون هو طريقة كل منهما فى تقرير الأحكام .

فالشريعة الإسلامية سلكت طريقة تعرضت بها لجميع أفعال الإنسان ماظهر منها ومابطن ، وانتهت بطريقها هذه إلى تقرير حكم لكل فعل ...

أما القانون فقد تعرض إلى بعض أفعال الإنسان الظاهرة دون أفعاله الباطنة

---

(١) الأستاذ أحمد موافى .

ودون باقى أفعاله الظاهرة ، وفى دائرة العقوبات فرض عقوبات لأفعال معينة ، اختارها على هواه ، لأنها ـ كما يرى ـ هى التى تُخل بكيان المجتمع وأمنه .

ولهذا كانت الشريعة الإسلامية منذ النظرة الأولى أوسع من القانون نطاقاً وأقدر على ملائمة الزمن ومسايرة التطور .

قال : « سأتكلم بقدر ما يسمح به الوقت » .

أولاً : فى تعريف الشريعة الإسلامية للناحية الباطنة من تصرفات الإنسان أو بعبارة أخرى العنصر الروحى فى تقرير الأحكام .

وثانياً : فى حصر دائرة الأفعال المحرمة فى القانون ومسلك الشريعة الإسلامية فى هذا الخصوص :

- **العنصر الروحى فى الأحكام :**

لا يعنى القانون كما أسلفنا إلا بالظاهر من الأفعال ، أما الشرع الإسلامى فهو يهدف من أحكامه إلى تحقيق غرضين :

أحدهما : يدور حول صلة الإنسان بالخالق ، وثانيهما : حول صلة الإنسان بالمخلوق ـ فهو إذن قائم على أساس يجمع بين مصلحتى الدين والدنيا على سواء ، لا فى العبادات فقط ، ولكن فى المعاملات أيضاً ، فتراه جعل لكل عمل حكمين .

(أ) حكماً مرجعه إلى صلة الإنسان بالمخلوق ، وهذا الحكم مستمد من الظاهر .

(ب) وحكماً مرجعه إلى صلة الإنسان بالخالق ، وهذا الحكم مستمد من الباطن .

فالبيع مثلاً ناحيته الظاهرية هى نقل الملكية فى المبيع والثمن ووصف العقد تبعاً لظروفه ، بأنه نافذ أو موقوف أو فاسد .

وناحيته الباطنية ترجع إلى قصد المتعاقدين ، فيوصف بأنه مباح أو مندوب أو واجب أو حرام ، فإذا كان البيع مثلاً لحاجة البائع إلى الثمن كان مباحاً ، وإذا كان لاستثمار المال كان مندوباً ، وإذا كان لدفع مخمصة كان واجباً ، وإذا كان وسيلة لأكل الربا كان حراماً ، وهذا يستتبع فساد العقد عند بعض الفقهاء دون بعضهم الآخر .

على أنه مع ترجيح وجهة نظر القائلين بأن الحرمة لا ينبنى عليها الفساد ، وإن تكون المؤاخذة عليها عند الحساب يوم القيامة ، فإن التشريع بهذه الوسيلة وهذا الأسلوب يعمل على خلق مجتمع صالح . وذلك بوضع تربية الروح وتهذيب النفس فى الاعتبار ، فينبنى على ذلك بطبيعة الحال صلاح أعمال الأفراد ، لأن النفس الخيِّرة لا تفعل إلا خيراً ، والنفس الشريرة لا يصدر عنها إلا الشر . ومتى صلحت نفس الفرد صلح عمله ، ومتى صلحت أعمال الأفراد صلح المجتمع الذى يعيشون فيه .

إذ منْ ذا الذى لا تنصلح أفعاله متى صلحت نفسه .

وأى مجتمع لا ينصلح شأنه متى صلحت نفوس أفراده ؟

ونهج التشريع الإسلامى فى تقرير أحكامه على هذه الصورة هو بحق النهج المثالى لحماية المجتمع من أى تصرف يهدد كيانه .

لأن تقرير الأحكام على الصورة المتقدمة أمر له أثره البالغ من ناحيتين أساسيتين :

الأولى : ناحية وضع الأحكام بمعرفة الحاكم .

الثانية : ناحية تنفيذها بمعرفة المحكوم .

فمن ناحية وضعها ، لاشك أن الحاكم فى بحثه عن الحكم والتماسه فى الأصول سيعمل جاهداً على معرفة ما يريده الله ، فتأتى أحكامه من هذه الوجهة عادلة وغير مشوبة ، فلن يضع حكماً كالذى سلف بيانه يجعل فيه هتك الأعراض فى بعض الأحوال عملاً مباحاً .

أما من ناحية التنفيذ بمعرفة الأفراد فإنه لاريب أن كثرة عظمى من الناس سيقبلون على تنفيذها بما يحقق رضا الله ، يبتغون من وراء طاعته فضله ورضوانه وهذا المعنى بذاته كفيل بأن يدفع الناس إلى الخير ، ويكفّ أيديهم عن الأذى والشر ، ويمنعهم من الاعتداء على الناس وأكل أموالهم بالباطل ـ ذلك أن الأحكام ستكون مؤيدة بوجدانهم و متصلة بضمائرهم ، فيخضعون لها عن عقيدة وحب لا عن رهبة وخوف .

أو فى الأدنى سيخضعون لها ابتغاء الثواب أو خوفاً من العقاب يوم الحساب .

وستكون النتيجة الحتمية لذلك قلة عدد الجرائم والمنازعات ، فيطمئن الناس

على أرواحهم وأموالهم وأعراضهم ، وتنعدم الشكوى إلى الحكام أو تقل ، ويتناقص عدد القضايا أمام المحاكم ، ويعيش الناس فى راحة وأمان وهدوء واطمئنان .

وعلماء القانون لم تَخْلُ أبحاثهم من التعرض لقواعد الأخلاق وإجراء المقارنات بين ما تتضمنه هذه القواعد وما أتت به أحكام القانون ، فتراهم مثلاً يبحثون فى الصلة بين القانون الجنائى والقانون الأخلاقى ، ويقولون : بأن كلا القانونين يهدف فى النهاية إلى إسعاد الفرد و الجماعة عن طريق فرض أوامر ونواهٍ يلتزم بها الناس ولكنهم سرعان ما تصدمهم الحقيقة الصارخة وهى انعدام التطابق بين القانونين ، وانحصار كل منهما فى دائرته الخاصة ، وإن تقاطعت الدائرتان فى حيز مشترك .

فمثلاً :

(١) لا يعاقب القانون ، كما أسلفنا على هتك العرض متى تجاوز المجنى عليه الثامنة عشرة ، وكان الفعل برضاه (المادة ٢٦٩ من قانون العقوبات) .

(٢) ويقضى القانون بعدم جواز محاكمة أحد الزوجين إذا زنى مالم يتقدم الزوج الآخر بشكوى يطلب المحاكمة (المواد ٢٧٣ ، ٢٧٧ من قانون العقوبات ، ٣ من قانون الإجراءات الجنائية) .

(٣) ويقضى بأن للزوجة التى زنا زوجها فى منزل الزوجية الحق فى أن تزنى مع غيره ولا تثريب عليها إن فعلت ذلك ، إذ تكون قد أتت عملاً يقره القانون (المادة ٢٧٣ من قانون العقوبات) .

(٤) ويعطى القانون كذلك للزوج الحق فى أن يعفو عن زوجته الزانية حتى بعد دخول السجن فيطلق سراحها منه متى ارتضى معاشرتها (المادة ٢٧٤ من قانون العقوبات)

(٥) ويقضى بعدم العقاب على الخاطف إذا تزوج بمن خطفها وقد يكون الخاطف غير كفء لها (المادة ٢٩١ من قانون العقوبات) .

(٦) ومن أحكامه أنه لا يعاقب على الشروع فى الإجهاض (المادة ٢٦٤ من قانون العقوبات) .

(٧) ولا يعاقب على الشروع فى أية جنحة إلا بنص (المادة ٤٧ من قانون العقوبات) .

وخرج عنده من حيز العقاب المشروع فى جنح الاعتداء على النفس بالجرح ومراودة المرأة على العرض ، وغير ذلك مما تأباه قواعد الأخلاق ، وتشمئز منه النفوس الكريمة ، فلم يكن للمشرع حد يلتزمه ، ولا نطاق يعمل فى دائرته ، ولا رقيب يخشى من حسابه فوضع الأحكام على هواه ، حتى أنها اختلفت فى المسألة الواحدة تبعاً لما إذا كان المجنى عليه رجلاً أو امرأة ــ فالزوج إذا استفزته زوجته وزنت مع غيره وقتلها حال التلبس هى ومن معها . عوقب بالحبس بدلاً من العقوبة المقررة لجريمة القتل العمد (المادة ٢٣٧ من قانون العقوبات) .

أما إذا كان الزانى هو الزوج فلم يعترف القانون بهذا العذر للزوجة . كذلك لم يعترف به للولد ولا للأخ ولا للولد ، بل افترض فى هؤلاء برودة الدم وطلبت منهم أن يغمضوا العين على مايرون من منكر (وأن يقفوا مكتوفى الأيدى على مسرح جريمة الاعتداء على عرضهم المغتصب وشرفهم المسلوب) وحتى فى العذر بالنسبة للزوج ، فلم يجعل القانون من قيام حالة التلبس بالزنا ما يبيح القتل ، بل جعل منه عذراً قانونياً مخففاً تحل به عقوبة الحبس محل الأشغال الشاقة .

ومعنى ذلك أن الزوجة ومَنْ يزنى بها يكونان أمام زوج مقدم على ارتكاب جريمة ضدهما فيحل لهما دفعه بالقتل ، أى يعجلان به خوفاً على نفوسهما .

ومن ثمَّ إذا كانت الزوجة أو الزانى بها أسرع فى قتل الزوج الذى شرع فى قتلهما وقضيا عليه أفلتا من كل عقاب .

من عقوبة الزنا لأنها سقطت بموت الزوج !!

ومن عقوبة القتل لأنهما كانا فى حالة دفاع شرعى عن النفس » .

الوحدة الأدبية والثقافية :

لم تلبث اللغة العربية وقتاً طويلاً حتى تجاوزت حدود الصحراء ، وشرعت تمتد مع الإسلام ، وتقتعد مكانة اللغات التى ولى عنها السلطان ، وقلّتْ إليها الحاجة .

فتلاشت اللغة اليونانية والرومانية والقبطية والفارسية ، وانتشرت اللغة العربية فى أرجاء الوطن الجديد ، ثم انفردت ــ بعد ــ بالبقاء .

وفَضْلُ الإسلام على اللغة العربية ظاهر ، فإن إقبال الناس عليه حبَّب إليهم لغة الوحى ، وأغراهم بإجادتها .

ثم إن انهزام المحتلّين الأقدمين حَلَّ بلغتهم نفسها .

فما جدوى تعلم لغة الروم بعدما طردوا من أفريقيا وآسيا ؟

ذلك إلى أن اللغة العربية متى رشحتها الأقدار كى تكون لغة الوحى الإلهى الأخير أجدر بالحفاوة وأحق بالخلود من غيرها .

ومن ثَمَّ سادت هذه اللغة ، وعزَّتْ ، ولم تقف أمامها عقبة ، فأضحت لغة التخاطب والتأليف والشعر ، والمكاتبات الرسمية والشعبية .

وما كان المراكشى المسافر من « صنهاجة[1] » إلى « عمان » ماراً بالمغرب والجزائر وتونس وطرابلس ومصر والمدينة إلى شاطىء الخليج ما كان يحتاج إلى ترجمان يصله بالناس فكأنه يمر بعشيرته الأقربين .

ومع سيادة اللغة العربية أقبل عليها أهل الأديان الأخرى على ما ألفوا من لغات .

وحقيق بالذكر أن موسيقى الشعر العربى انتقلت إلى بعض اللغات الشرقية التى أصبحت مكانتها ثانوية ، كما أن الحروف العربية أصبحت أداة الكتابة للفارسية والأوردية والتركية والأندونيسية ...

إن الإسلام أضفى على اللغة العربية قداسة جعلت الحفاظ عليها ديناً ، وضبط قواعدها عبادة .

ولذلك تجاوزت علوم الشريعة وعلوم اللغة فى كل دراسة إسلامية ، وكان الأعاجم ينافسون العرب ـ وربما سبقوهم ـ فى هذه الدراسات معتقدين أن المرتبة الدينية لأى مسلم إنما تقررها براعته فى هذا الميدان .

ولا يزال الجامع الأزهر دليل صدق على هذه الحقيقة ، وينبغى ألا ننسى جنسية بانيه الأول ، فهو مسلم من صقلية !

والحركة الفكرية التى انتشرت فى ربوع هذا الوطن الرَّحْب ترجع إلى أصلين :

(١) ما أنشأه الاسلام إنشاء من علوم خاصة به أو بلغته كعلوم التفسير

---

(١) هى فى أقصى بلاد المغرب . (مصححه) .

والسنة والفقه والعقيدة والأخلاق ، وعلوم النحو والصرف والأدب والبلاغة .
وقد نهضت بهذه العلوم مدارس لا حصر لها ، لا يكاد يخلو منها بلد ذو شأن ، وذلك عدا الجامعات التى قامت فى المساجد الكبرى أو انفردت لها معاهد خاصة .
والمسلمون يُقبلون على هذا اللون من المعرفة بوصفه مصدر توجيههم الدينى . ولذلك يجلسون له فى باحات المساجد كما يسجدون لربهم فى المحاريب .

(٢) علوم الحياة التى تفتق عنها العقل الاسلامى ، بعد ما صحح الاسلام نظرته إلى الكون ، وبعثه على التأمل فيه ، واكتناه آياته ، واستغلال خيراته ، وقد أقبل العرب على هذا النوع من العلوم ، ودعاهم هذا الإقبال إلى استحياء التراث الفكرى القديم كله ، وإلى استعراضه بدقة وشغف ..
وقد ارتفعت الحياة العقلية عند العرب فى جميع الاتجاهات الإنسانية ، وظهر ذلك جلياً فى حضارتهم التى سنتحدث عنها ، وهى حضارة يحاول الجاحدون ـ تأثراً بأحقاد صليبية ـ أن يطمسوا سناها ، ولكن الحق أغلب .

***

شاعت هذه النهضة الأدبية والثقافية فى شتى الأمصار والأعصار ، وتعاون العرب والمسلمون على رعايتها وحمايتها ، حتى أتى على الدنيا زمان لم تعرف فيه علماً ولا فناً إلا فى حواضر هذه الأمة الحفية بالعلم والفن ..
فكانت أجناس البشر تَفِدُ من كل فَجٍّ لتتلمذ على الذكاء العربي ، وتعود منه بقبس إلى بلادها تنتفع به وترتفع ...

ثم عثرت الجدود بهذه النهضة ، وجيء بالأسفار التى أفنى العلماء قواهم وأبصارهم فى تأليفها ، فرمى بالألوف المؤلفة منها فى الأنهار والبحار وفضت تلك المجامع على أيدى التتار شرقاً والصليبية غرباً .
ودام الصراع بين العلم والجهل قروناً لم تكن الغلبة فيها للخير ، فخرج العرب والمسلمون من القرون الثلاثة الأخيرة ، وهم من الناحية العلمية ضعاف عجاف ، ذبلت علوم الدين واضمحلت الحياة ، وتبلبلت اللغة الفصحى .
والوحدة العربية المنشودة يجب أن تعود سيرتها الأولى فى المجال الأدبى والثقافى

متأثرة خطى الأوائل فى الدرس والتحصيل ، معطية علوم الدين والحياة ما تستحقه من نظر ذكى وبصر قوى ...

وقد أصيبت اللغة العربية بجراحات وعلل تتقاضانا السرعة فى مداواتها ، والقدرة على تخليصها من العقابيل التى اعترتها سواء من تفريط أصحابها أو من كيد عداتها .

إن دراسة كثير من العلوم المهمة لاتزال باللغات الأوربية ، والضعف النفسى الذى رمانا به الاستعمار جعل ألوفاً من المتعلمين يضيقون بلغتهم ويعجزون عن إجادتها .

ثم وفدت الحضارة الحديثة بأشياء لا حصر لها فى ميادين الصناعة وشئون الحياة لم نضع لها بَعْد الأسماء العربية التى تعرف بها ...

والتخلف فى هذا المضمار شرٌ وَبِيلٌ ، وأسوأ منه أن يعود العجزة على لغتهم بالاتهام والريبة .

ومؤامرات الاستعمار لإسقاط منزلة اللغة العربية أصابتها بالكثير وتتهددها بالكثير .

والغرض من إماتة هذه اللغة إفناء العروبة والإسلام جميعاً ..

وقد تعددت صور هذا الهجوم فى نصف القرن الأخير .

فتارة تسفر عن نيتها ، وتطلب تفضيل اللغة العامية على الفصحى فى الكتابة والخطابة والإذاعة ، ثم تلتزم هذه العامية فى الحوار الروائى دائماً .

وتاره تُنوِّه بحروف الهجاء ، وطرق الكتابة العربية ، وتطلب :

إما تعديلها ، وإما استبدال الحروف اللاتينية بها .

وتارة تسخر من الشعر العربى ، وتحط من قدره ومعانيه ، وتتهكم ببحوره المنغومة الرائقة ، وتؤثر عليها مايسمى «بالشعر المرسل» .

والشعر المرسل هذا ضرب من الهذيان لا يروج عند أديب يحترم نفسه .

ولعل من أسمج مايقرع الآذان ، أن ترى امرءاً يقول للآخر « ميرسى » بدل « شكراً » أو « أوريفوار » بدل « إلى الملتقى » .

وفى الوقت الذى تحاول بعض الشعوب إحياء لغاتها الميتة ترى أولئك السفهاء موكلين بإماتة لغتهم الحية .

أى مخزاة تلك ؟ وأى انحلال ؟

ويوجد مجمع للغة العربية يسمونه مجمع الخالدين ، وأحرى به أن يسمى مجمع الهامدين ، فهو لم يُسْدِ للغتنا العظيمة جميلاً يذكر .

والأغرب من ذلك أنه يضم إلى هذا المجمع أعضاء لا يخفى حقدهم على العروبة وجهلهم بلغتها .

وفى هؤلاء وأولئك يقول حافظ إبراهيم على لسان اللغة العربية :

رجعتُ لنفسى فاتهمْتُ حصاتى ... ونادیتُ قومى فاحتسبتُ حياتى

رَمَوْنى بعُقْم فى الشباب ولَيْتنى ... عقمْتُ فلم أجزعْ لقول عدَاتى

وُلِدْتُ ولما لم أجِدْ لعرائسى ... رجالاً وأكفاءَ وأدتُ بناتى

وَسِعْتُ كتابَ الله لفظاً وغايةً ... وما ضِقْتُ عن آىٍ به وعِظاتِ

فكيف أضيقُ اليومَ عنْ وَصْف آلةٍ ... وتنسيق أسماء لمخترعـــات ؟

أنا البحرُ فى أحشائه الدُّرُ كامنٌ ... فهل سألوا الغَوَّاص عن صَدَفَاتى

فَيَا ويحكم أبلى وتَبْلى محاسِنى ... ومنكم وإنْ عَزَّ الدواءُ أساتى

فَلا تَكِلونى للزمانِ فإننـى ... أخافُ عليكم أنْ تحينَ وفَاتى

أرى لرجالِ الغربِ عِزّاً ومنعةً ... وكم عَزَّ أقوامٌ بعزِّ لغاتِ

أتَوْا أهلهم بالمعجزاتِ تفنناً ... فَيَا ليتكُمْ تأتُونَ بالكلماتِ

أيُطربكُمْ من جانبِ الغَرْب ناعبٌ ... يُنادى بوأْدِى فى ربيعِ حيَاتى

ولَوْ تزجُرونَ الطَّير يَوْما علمتم ... بما تحته من عَثْرةٍ وشتاتِ

سقى الله فى بطنِ الجزيرة أعْظُماً ... يعزُّ عليها أنْ تلينَ قَنَاتى

حَفِظْن ودادى فى البِلَى وحفظته ... لَهُنَّ بقلبٍ دائمِ الحسراتِ

وفاخرتُ أهلَ الشرقِ والغرب مطر ... ق حياءٍ بتلك الأعْظُم النخراتِ

أرى كُلَّ يوم بالجرائِد مزلقاً ... من القبر يُدْنِينى بغيرِ أناةِ

وأسمعُ للكتاب فى مصر ضجَّةً ... فأعلمُ أنَّ الصائِحين نعاتى

أيهجُرنى قَوْمى ـعفا الله عنهمـ ... إلى لغةٍ لم تتصلْ برواة؟

سَرَتْ لوثَة الإفرنج فيها كما سَرَى ... لُعابُ الأفاعى فى مسيل فُرَاتِ

فجاءتْ كثُوبٍ ضَمَّ سبعين رقعةً ... مُشكَّلةَ الألـوانِ مختلفـــاتِ

إلى معشرِ الكتاب والجمع حافلٌ ... بسطْتُ رجائى بعد بَسْطِ شَكَاتى

فإما حياة تبعثُ الميتَ فى البِلَى وتنبت فى تلكِ الرُّمُوسِ رُفَاتى
وإما مماتٌ لا قيامةَ بعده مماتٌ لعمْرِى لم يُقَسْ بمماتِ

دار الإسلام :

أدى الأسلاف ما عليهم من واجب فى نشر الإسلام ، فدخلت فيه أمم شتى ، وصدق الله وعده للمجاهدين ، فاستخلفهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، ومكّن لهم دينهم الذى ارتضى لهم .

وقامت للإسلام دولة عزيزة الجانب واضحة الدعوة مأنوسة الرسالة يدرك الأدنى والأقصى ماتريده وما تقوم عليه .

وإذا كان السائحون فى أنحاء الاتحاد « السوفيتى » مثلاً يرون تطبيقاً عملياً للنظام الشيوعى القائم على ملكية الدولة للأرض ووسائل الإنتاج .

وإذا كان السائحون فى الولايات المتحدة مثلاً يرون تطبيقاً عملياً لحرية الفرد فى التملك والتكسب والاعتقاد .

فإن أرجاء الدولة الإسلامية الأولى كانت مظهراً للإسلام من حيث أنه عقيدة ونظام ، ويستطيع أى جوال فى جنباتها أن يلمح شارات دولة تنهض على رسالة بارزة ، وتستمد مكانتها ووجاهتها فى الداخل والخارج من تمسكها بهذه الرسالة وإنفاذها لأحكامها وسهرها على رعاياها ودفاعها عن حوزتها ، والتحدث باسمها فى المجالات العالمية ، والمؤتمرات الدولية ..

والخلافة الإسلامية ورثت النبوة فى هذه الوظيفة ، وظيفة سياسة الجماهير وفق شرائع الإسلام والنظر فى مصالحهم الدنيوية والأخروية فى نطاق مقررات هذا الدين .

وقد بقيت الأمة الإسلامية فى أرضها المترامية الأطراف تحترم هذا النظام .

وربما انتفض بعض الحكام على هذه الخلافة الجامعة ، وأسسوا حكومات خاصة بالأقطار التى استقلوا بها .

وسواء عادت هذه الدويلات إلى الكتلة أو ظلت بمنأى عنها ، فإن الفقهاء أطلقوا على كل بلد تقام فيه أحكام الإسلام وتحترم فيه تعاليمه وأهدافه « دار الإسلام » .

وقد استمات الاستعمار فى نسف هذه الدار ، وطى الدلالات التى تقترن بها .
ونحن الآن أمام وطن إسلامى مبعثر الأفراد والجماعات فى بقاع شتى .
وتوجد بلا ريب دول تحمل العنوان الإسلامى لكن من الصعب القول بأن الحكم فيها ـ نظم أو شرائع القضاء العام بها ـ يقوم على أسس إسلامية .
إن أحوال مسلمى اليوم ـ على كثرتهم ـ تشبه مع تجوز يسير ـ أحوال القلة التى عاشت قبل الهجرة ، فقد كانوا يمثلون عقيدة تتطلب النظام الذى يحميها ويحييها ، ولم يتهيأ لها ذلك النظام المنشود إلا بعد الهجرة إلى المدينة والاستقرار فيها .
ونحن العرب نهتم بكل مسلم على ظهر الأرض ، فهو ثمرة رسالتنا وجزء من كياننا الروحى .
ولو وجد بالمريخ مسلم لقامت للفور أواصر الود تصل حبالنا بحبله .
وقد أسلفنا القول أننا ندرس الوطن العربى على أنه جزء من الوطن الإسلامى .
والواقع أن العرب ـ وإن اتسعت بلادهم ـ لا يبلغ عددهم أكثر من ٢٠٪ من جملة المسلمين فى العالم .
وإخوان العقيدة هؤلاء لهم فى قلوبنا مكان ، وفى أعناقنا ذمام ، ويستحيل أن ننسى مشكلاتهم أو نتبلد لآلامهم ، أو نفرط فى روابطهم .
ومن حق الشعوب المسلمة أن تحيا فى جو الإيمان الذى اقتنعت به ، وأن تحتكم فى شئونها كافة إلى النصوص التى تقدسها ، كما أن من حقها أن تتضام أو تتضافر لبلوغ هذه الغاية ولإزاحة العوائق التى تعترضها .
ويبدو هذا الحق جلياً فى البلاد التى يكون فيها المسلمون كثرة .
أما حيث يكونون قلة فلا بُدَّ من أن يعيشوا وراء سياج عقائدهم وحدها ، مؤدين من شعائر الإسلام مالا يعرضهم لصدام ، مرددين قول الله :
« **رَبّنا افتحْ بَيْننا وَبينْ قَومِنا بِالحَقِّ وَأنتَ خَيرُ الفَاتِحين** »[1] .
وهناك إحصاء يكشف عن جملة المسلمين فى العالم والأوطان التى توزَّعوا عليها وهو إحصاء أدنى إلى الدقة من غيره .

---

(١) الأعراف : ٨٩ .

ولا ننسى أن أعداد المسلمين فى الأمم الشيوعية أو فى ظل الحكومات النصرانية موضع مماراة ، وأخذ وَردٌّ ، بيد أن ذلك الإحصاء قارب الصواب جهده ،ولا ملحظ عليه إلا أنه سُجِّل من بضع سنين زاد المسلمون خلالها قليلاً ، كما يشير إلى ذلك آخر إحصاء وقع فى جمهورية مصر العربية ، وأن عدة تغييرات سياسية مهمة وقعت خلال هذه الفترة يجب أن تستدرك .

ذلك ، ويلاحظ القارىء أن المسلمين كثرة فى نحو ٣٨ قطراً أى مايقرب من ثلث الأمم المتحدة !!!

افريقيـــا

الأقطـــــــار	عدد المسلمين	النسبة إلى السكان
جمهورية مصر العربية	٥٤٠٠٠٠٠٠	٪٩٤,٥
الســودان	١٧٥٠٠٠٠٠	٪٨٠
ليبيـــا	٤٠٠٠٠٠٠	٪٩٩
الجــزائر	٢٢٥٠٠٠٠٠	٪٩٩
المغــرب	٢٣٥٠٠٠٠٠	٪٩٧
تونــس	٧٠٠٠٠٠٠	٪٩٧
جيبــوتى	٤٠٠٠٠٠	٪٩٣
الصــومال	٥٨٥٠٠٠٠	٪٩٩
الحبشـــة	١٥٩٠٠٠٠٠	٪٧٠
تنزانيـا	٨٥٠٠٠٠٠	٪٨٠
موريتانيـا	١٦٥٠٠٠٠	٪٩٩
جامبيـــا	٧٠٠٠٠٠	٪٨٥
الســنغال	٥٥٠٠٠٠٠	٪٩٥
مالــى	٦٠٠٠٠٠٠	٪٨٠
زائيــر	٥٠٠٠٠٠	٪١,٥

الأقطـــــار	عدد المسلمين	النسبة إلى السكان
جزر القمـر	٥٠٠٠٠٠	٪٩٩
بورنـدى	١٠٠٠٠٠	٪٢
رواندا	٣٠٠٠٠٠	٪٥
الفولتـا	٢٠٠٠٠٠٠	٪٣٥
غينيـا	٣٠٠٠٠٠٠	٪٧٥
غينيا الاسبانية	٢٠٠٠٠٠	٪٥٠
غينيا البرتغالية	٤٥٠٠٠٠	٪٦٥
سـاحل العـاج	٣٠٠٠٠٠٠	٪٧٠
داهومى (بنين)	٢٥٠٠٠٠٠	٪٦٥
غانـا	٣٥٠٠٠٠٠	٪٥٥
الكمـرون	٤٠٠٠٠٠٠	٪٦٥
سـيراليون	٣٠٠٠٠٠٠	٪٦٥
نيجـيريا	٨٥٠٠٠٠٠٠	٪٩٢
النيجـر	٥٥٠٠٠٠٠	٪٩٠
سبتة ومليلة	٢٥٠٠٠٠	٪٩٥
ليبيـريا	١٠٠٠٠٠٠	٪٤٠
جمهورية افريقيا الوسطى	١٥٠٠٠٠٠	٪٧٠
تشـاد	٣٠٠٠٠٠٠	٪٧٠
الجابـون	٤٠٠٠٠٠	٪٥٠
جزيرة رينون	١٠٠٠٠٠	٪٣٠
موزأمبيـق	٢٢٥٠٠٠٠	٪٣٥
توجـو	١٢٥٠٠٠٠	٪٦٥
الكونغـو	١٠٠٠٠٠٠	٪١٥
الكونغو برازفيـل	٢٠٠٠٠	٪١٠

obeikandl.com

الأقطـــــار	عدد المسلمين	النسبة إلى السكان
أنجـولا	٢٠٠٠٠٠٠	٣٠٪
أوغنـدا	٤٥٠٠٠٠٠	٥٠٪
كينيـا	٣٥٠٠٠٠٠	٤٠٪
مـالاوى	١٠٠٠٠٠٠	٢٠٪
روديسـيا	١٠٠٠٠٠٠	٢٠٪
باسـوتولند	١٠٠٠٠٠	١٥٪
بتسـوانا	٥٠٠٠٠	٥٪
جمهورية جنوب افريقيا	٥٠٠٠٠٠	١٪
جمهورية مالاجاش	٢٠٠٠٠٠٠	٢٥٪
جزر موريشيوس	٢٠٠٠٠٠	٢٠٪
جنوب غرب افريقيا	١٠٠٠٠	٢٪
الصحـراء المغربيـة	٤٥٠٠٠	١٠٠٪
أفـنى	٥٥٠٠٠	٨٥٪
زامبيـا	١٠٠٠٠٠٠	٢٠٪

مجموع عدد المسلمين فى افريقيا ٣١٣,٢٨٠,٠٠٠ مليون

اســيا

الأقطـــــار	عدد المسلمين	النسبة إلى السكان
اليمـن	١٢٠٠٠٠٠٠	٪٩٩
أفغانستان	١٨٠٠٠٠٠٠	٪٩٩
البحـرين	٤٥٠٠٠٠	٪٩٥
اندونيسـيا	١٥٠٠٠٠٠٠٠	٪٩٠
إيـران	٥٠٠٠٠٠٠	٪٩٨
الكويـت	١٥٠٠٠٠٠	٪٩٥
الأردن	٣٥٠٠٠٠٠	٪٩٠
لبنـان	٢٠٠٠٠٠٠	٪٧٠
ماليزيـا	٨٥٠٠٠٠٠	٪٥٥
عمـان	١٥٠٠٠٠٠	٪١٠٠
باكسـتان	٩٧٥٠٠٠٠٠	٪٩٠
بنجلاديـش	٨٥٠٠٠٠٠٠	٪٩٠
قطـر	٣٠٠٠٠٠	٪٩٠
المملكة العربية السعودية	٧٠٠٠٠٠٠	٪١٠٠
سـوريا	٩٠٠٠٠٠٠	٪٩٢
الإمارات العربية المتحدة	١٤٠٠٠٠٠	٪١٠٠
فلسـطين	٣٥٠٠٠٠٠	
العـراق	١٦٠٠٠٠٠٠	٪٩٠
تركيـا	٥٠٠٠٠٠٠٠	٪٩٥
برونـاى	١٥٠٠٠٠	٪٦٠
جزر مالاديف	٢٠٠٠٠٠	٪٩٧
الفلبيـن	٨٠٠٠٠٠٠	٪١٦

obeikandl.com

الأقطـــــار	عدد المسلمين	النسبة إلى السكان
فيتنـام	١٥٠٠٠٠٠	٤٪
كمبـوديا	٢٢٥٠٠٠	٨٪
سـنغافورة	٥٠٠٠٠٠	١٧٪
بوتـان	٥٠٠٠٠	٣٪
منغوليـا	٥٠٠٠٠	٢,٢٪
لاوس	٥٠٠٠٠	١,١٪
تايلانـد	٤٠٠٠٠٠٠	١٠٪
بورمـا	٢٠٠٠٠٠٠	٧٪
سـيلان	١٢٠٠٠٠٠	١٠٪
هونج كونج	١٠٠٠٠	٠,٣٪
تايـوان	٨٠٠٠٠	٠,٣٪
غينيا الجديدة الاستوائية	٢٥٠٠٠٠٠	٩٩٪
بابـوا	٨٠٠٠٠٠	٩٢٪
نيبـال	٥٠٠٠٠٠	٣٪
اليابـان	١٠٠٠٠٠	٠,٥٪
الصـين	٧٠٠٠٠٠٠	٨٪
الهنـد	١٠٠٠٠٠٠٠	١٢٪
جـزر فيجـى	٢٠٠٠٠٠	٢٠٪

obeikandl.com

الاتحاد السوفييتى
الجمهوريات

الأقطار	عدد المسلمين	النسبة إلى السكان
طاجيكستان	٤٤٥٠٠٠٠	٪٩٨
قرغيزيا	٤٣٠٠٠٠٠	٪٩٢
تركمان	٣١٠٠٠٠٠	٪٩٠
أوزبكستان	١٧٠٠٠٠٠٠	٪٨٨
أذربيجان	٧٠٠٠٠٠٠	٪٧٨
كازاكستان	١٥٥٠٠٠٠٠	٪٦٨
جورجيا	٢٠٠٠٠٠٠	٪١٩
أرمينيا	٥٠٠٠٠٠	٪١٢
أوكرانيا	١٠٥٠٠٠٠٠	٪١٢
روسيا	١٥٠٠٠٠٠٠	٪٦
بايلروسيا البيضاء	١٠٠٠٠٠٠	٪٦
مولدافيا	٢٠٠٠٠٠	٪٣

مجموع السكان المسلمين فى الاتحاد السوفيتى : ٨٠,٥٥٠,٠٠٠ مليون

مجموع عدد المسلمين فى آسيا ٧٨٩,٨١٥,٠٠٠ مليون

obeikandl.com

أوروبـا

الأقطـــــار	عدد المسلمين	النسبة إلى السكان
ألبانيـا	٢٥٠٠٠٠٠	٪٩٥
يوغوسـلافيا	٤٠٠٠٠٠٠	٪٢٠
قبـرص	٤٠٠٠٠٠	٪٤٠
مالطـا	٥٠٠٠٠	٪١١
أمريكا الشمالية	٥٠٠٠٠٠٠	
أمريكا الجنوبية	٧٠٠٠٠٠	
جزر الهند الغربية	٢٠٠٠٠٠	
اسـتراليا	٢٥٠٠٠٠	٪١,٥
فرنسـا	٢٥٠٠٠٠٠	٪٤,٥
ألمانيـا	٢٠٠٠٠٠٠	٪٢,٧٥
بريطانيـا	٢٠٠٠٠٠٠	٪٣
بلجيكـا	٢٥٠٠٠٠٠	٪٢,٥
النمسـا	١٠٠٠٠٠٠	٪١,١
هولنـدا	٣٠٠٠٠٠	٪٢
اليونـان	١٥٠٠٠٠٠	٪١,٥
بلغاريـا	٨٠٠٠٠٠	٪٩
جبـل طـارق	٣٠٠٠	٪١٠

مجموع عدد المسلمين فى أوربا وأمريكا واستراليا : ٢١,٢٠٣,٠٠٠ مليون

مجموع عدد المسلمين فى العالم : ١,١٢٤,٢٩٨,٠٠٠ مليار

obeikandl.com

عند إعداد هذا الكتاب للطبع بلغ عدد المسلمين مليار و ٢٥٠ مليون مسلم أى خمس العالم ..!

ونحن إذ نثبت هذا الإحصاء بعد جهد وتمحيص ؛ لا ننسى تكرار شكاتنا من حرب التزوير التى يشنها الاستعمار حين يحصى السكان ، فهو يتعمد الكذب على نحو مستغرب ..

فتسمع من بعض الإذاعات الكبرى مثلاً أن أقباط مصر عشرة ملايين ، أو ستة أو خمسة ، وهم وَفْقَ أدق الإحصاءات التى تمت على عهد الاحتلال البريطانى ؛ وبعد الاستقلال ؛ يقاربون نصف عُشْر السكان ، ولم يصل عددهم إلى يوم الناس هذا ثلاثة ملايين .

والأمر كذلك فى أقطار أخرى .

ونلاحظ أن هذا التعداد قد تسربت إليه أخطاء غير قليلة ، ولكنها ذات دلالة مثيرة ..

فالمسلمون فى الحبشة يزيدون على النصف ، وفى إيرتريا يبلغون أربعة أخماس السكان .

وبعد أن غزت الحبشة إيرتريا فى حركة صليبية بالغة الهمجية ، وجعلت من البلدين دولة واحدة باسم أثيوبيا زعم ولاة الأمر فيها أن عدد المسلمين ٣٠٪ ..

والجهود مبذولة سراً وعلناً لجعل المسلمين فى حدود هذه النسبة أو دونها إن أمكن .

وأوروبا وأمريكا تعينان حكومة أثيوبيا المتعصبة على بلوغ هذه الغاية بكل وسائل القسر .

كما نلاحظ أن أعداد المسلمين فى أغلب الدول الأفريقية التى استقلت أخيراً قد نقصت نقصاً فاضحاً ، ولاشك أن هذا التحريف متعمد .

وفى الوقت الذى يبرز فيه عدد المسلمين قليلاً تضاف جماهير الوثنيين إلى عدد المسيحيين ليظهروا فى التعداد وكأنهم الكثرة الغالبة .

وهذا الختل المقصود هو السناد لبقاء حكومات هذه البلاد مسيحية تفرض سلطتها على كثرة إسلامية مسحوقة .

أما فى لبنان ـ حيث تعيش كثرة مسلمة ـ فإنه لم يَجْرِ فيه تعداد من عشرات السنين ، منعاً للقيل والقال ..!!

أما مسلمو أوروبا فالسكوت عن مأساتهم أفضل .

إن المسلمين فى أغلب بقاع العالم يواجهون حرب إحصاءات مستغربة !!

ولعلك لاحظت فى هذا الإحصاء أن أقباط مصر $\frac{١}{١٠}$ السكان ، وهذا خطأ فهم $\frac{١}{١٥}$ فقط .

ولعلك لاحظت أيضاً أن مسلمى السودان دون النصف ، وهذا أيضاً خطأ ، فهم فوق الثلاثة أرباع .

ومع ذلك فهذا الإحصاء الذى نسجله على علاته أدنى إلى الصواب من إحصاءات أخرى تجعل المسلمين نصف حقيقتهم الرقمية ..!!

العرب على اختلاف أديانهم :

مهما اختلف سكان هذه البلاد فى عقائدهم فهم جميعاً مواطنون شرفاء ، متساوون فى الحقوق والواجبات ، لا ينزل بأحدهم ضيم ولا يُذَاد عن فضل .

وقد أرسى الإسلام ـ وهو دين الكثرة الكبرى من العرب ـ دعائم هذه المعاملة النبيلة ، وعرفت بها دياره يوم كانت « أوربا » لا تعرف احلاف الدين إلا على أنه القطيعة الباتة ، والخصام الطويل .

نعم ، فإلى مطالع العصر الحديث كانت دول « أوربا » تألف التناحر المذهبى وتشعل من أجله الحروب التى لا تخمد جذوتها .

أما الإسلام الذى جعل بيت الزوجية يسع دينين ، فإنه لم يضيق الأرض الفضاء أمام أتباعه وأتباع اليهودية أو النصرانية .

ولقد وسعهم المجتمع الإسلامى كما وسع أبناءه على ما أسلفنا .

وشىء آخر يجب إبرازه فى هذا الدين القيم ، إنه لم يسمح فقط لمخالفيه فى الرأى أن يعيشوا فى كنفه ، بل جعل حياتهم وكرامتهم فى ذمته ، فهو يدفع عنهم إن هوجموا ، ويرد العدوان إن ظلموا .

وكان الخليفة إذا مات أوصى مَنْ بعده بعامة المسلمين ، وبأهل الذمة على سواء .

وليس فى تاريخ العقائد ـ ولن يعرف ـ أشرف من هذه السياسة ، ولم يُؤْثر عن منتصر ـ ولن يُؤْثر أبداً ـ أن يحتضن مخالفيه فى الرأى ، بل مكذبيه فى الاعتقاد ، فيلقى عليهم كنفه ، ويشهر سيفه ذَوْداً عن حِماهم .

ولذلك لم تشعر أرض العروبة والإسلام خلال تاريخها الطويل بما يسمى « مشكلة الأقليات » فإن هذه المشكلة وليدة أزمات الخلق ، والرأى والضمير التى باضت وفرَّخت فى أوربا خلال العصور الوسطى ، والتى رأى ساسة الغرب أن يرمونا بها إشباعاً لحساساتهم الاستعمارية .

ولاشك أن ناساً كثيرين من أهل الكتاب دخلوا فى الإسلام أفواجاً ، إعجاباً منهم بهذه السماحة الرائعة ، وتخلوا عن دياناتهم الأولى .

فهل ذلك ذنب الإسلام ؟

إن الكثرة التى اعتنقت الإسلام فى مصر ، وفى غير مصر من أقطار العروبة اعتنقته عن إرادة حرة ، بل اعتنقته عن إعزاز وحُبٍّ .

وحركة الفتح الإسلامى الأول حطت عن كاهل الشعوب أثقال الفرس والرومان التى بهظتهم قروناً طويلة ، وفى أهداف هذا الجهاد الدينى الذى قام به المسلمون على عهد الرسول وخلفائه ، يقول مؤلفو كتاب « المجتمع العربى » :

« فإن الأمة العربية حملت فى هذا الدور الهام من أدوار التاريخ أمانة كبرى هى تحرير أهالى الشرق الأدنى من نير العبودية وتخليص المعابد والكنائس والأديرة من ظلمة الاضطهاد ، ورد كرامة البشر الضائعة فى تلك المنطقة وبثّ رسالة جديدة فى الاصلاح ، وكان أن ظل العرب فى حركة جهاد طويلة استمرت من سنة ١٢ حتى ١١٤ هـ (٦٣٣ م ـ ٧٣٢ م) فخاضت جموعهم القتال فى موجات متلاحقة ، ودخلوا أعنف المعارك التى شهدتها البشرية من أجل التحرير والعقيدة ، وضربوا أروع الأمثلة فى الدفاع عن المبادىء الإنسانية الشريفة ، وفى خلال هذه المعارك الطويلة سقط كثير من الشهداء فوق كل بقعة من هذا الوطن الفسيح الممتد من الخليج العربى إلى المحيط الأطلسى ، حتى غدتْ الدول الإسلامية

العربية تشمل الأندلس وشمال افريقية ومصر والشام والعراق وفارس وشمال الهند فضلاً عن شبه الجزيرة العربية .

وعلى أن العرب لم يحرروا هذه المنطقة من الخوف ، ويحققوا لها الطمأنينة والسلام فحسب ، وإنما حملوا لأهل البلاد الأصليين مبادىء المحبة والإخاء والمساواة والحرية ، ومصداق ذلك عقود الصلح التى عقدها العرب مع شعوب المنطقة كلها : مع أهل العراق والشام ومصر والمغرب .

وأول ما يلاحظ على هذه العقود أنها تنبع كلها من نبع واحد ، وتكفل للشعوب المتعاونة مع العرب حرية النفس والعقيدة والمال ، فحررت الكنائس اليعقوبية والنسطورية فى مصر والشام والعراق ، وظفر الأهالى الذين اختاروا البقاء على دينهم بما لم يظفروا به من حريات .

وهذا ميخائيل الأكبر بطرك أنطاكية اليعقوبى يقول : « تخلصنا من قسوة الروم وأذاهم وحنقهم وتحمسهم العنيف ضدنا ، ووجدنا أنفسنا فى أمن وسلام » .

ويضيف المستشرق « أرنولد » إلى هذه المآثر حقائق أخرى فيذكر أن المسيحيين أصبحوا تحت حكم العرب أحسن حالاً من قبل ، لأنهم لم يحصلوا على حرياتهم فحسب : بل استطاعوا فى كنف الإسلام أن ينشروا المسيحية فى جهات لم يبلغوها من قبل ، وذلك بفضل تسامح العرب واتساع رقعة الدولة العربية ، ماذا يطلب الإسلام بإزاء هذا السلوك العالى :

إنه يطلب عوضاً لا يصعب على نفس شريفة ! يطلب أن يلقى الطمأنينة ، والود عند مَنْ بذل لهم وُدَّه وطمأنينته .

والإسلام ــ كما نعلم ــ عقيدة ونظام ، وهو يكره أن تُحارب عقيدته بالفتنة والمقت أو يُحارب نظامه بالفوضى والعبث .

فإذا نظر المسلمون إلى أهل الكتاب فوجدوا لدى بعضهم كنوداً يستنكر حق الحياة لهذا الدين ، ويستبيح الاتصال بأعدائه فى دول أخرى كى يكون لهم صنيعة ، فماذا يفعل الإسلام ؟

أيُبقى يد الوُدِّ مبسوطة أم يقبضها ؟ أيدع حبل الموالاة موصولاً أم يقطعه ؟ فى هذه الحال من الغش والخيانة والعداء الكامن أو السافر . يهيب الإسلام بأبنائه أن

ينكمشوا على أنفسهم . وأن يتضام بعضهم إلى بعض حق يحسنوا الدفاع عن إيمانهم المهدد .

وفى هذا يقول الله تعالى :

« لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ »(١) .

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ »(٢) .

ولنضرب مثلاً من تاريخنا المعاصر يكشف عن هذه الحقيقة :

فى هذه الأمة العربية أكثر من تسعة أعشار السكان مسلمون وبينهم قلة يهودية عاشت فى بلادنا لم تَلْقَ ذرة من التقتيل والهوان اللذين لقيهما إخوانهم فى أوربا .

وبغتة تآمر يهود العالم على الوطن الذى آواهم ، واستعانوا بالصليبية الحاقدة على تقطيع أوصال الأمة الساذجة المسترسلة فى سماحتها وغفلتها .

فإذا يهود اليمن والعراق والشام ومصر والمغرب ينسون اللغة والتاريخ والجنس ويستديرون لمواطنيهم القدامى مُعْمِلين أسلحتهم فيهم !

هذا هو جزاء وفاقنا بذمتنا ، واحترامنا لعقائد الآخرين !!

أفيُلام المسلمون إذا أحبوا الاستيثاق لأنفسهم ، أو إذا فحصوا الأمور على ضوء ما بلوه من تجارب ، وعانوه من مآسى ؟ إن إنساناً ما لا يُلام إذا أحاط حقه فى الحياة بشتى الضمانات خصوصاً من الجهات التى لُدِغ منها ، وذاك ما فعله العرب المسلمون فى بعض الأحيان .

ولو أن مسلماً خان قومه ما لقى خيراً من ذلك المسلك .

أما فى جو السلام والبراءة ، فليس فى الدنيا أنقى ولا أزكى من أرض العروبة والإسلام .

---

(١) آل عمران : ٢٨ .

(٢) آل عمران آية : ١١٨ .

وهيهات أن يصل الغرب إلى معشار الاعتدال والإنصاف اللذين يوفرهما الإسلام لمتبعيه وتاركيه على سواء .

المسلمون على اختلاف أجناسهم :

الإسلام دعوة عامة خالدة ، وبديهى أن تبدأ بالعرب قبل أن تنداح دائرتها فتصل إلى طورها العالمى الواسع الأرجاء .

كان البلاغ أولاً فى حدود الأقارب ، ثم فى نطاق مكة وما حولها : « **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ** » [1] « **وَكَذَلِكَ أَوْحَينا إِلَيْكَ قُرآناً عَرَبِياً لِتُنذِرَ أُمَّ القُرَى وَمَنْ حَولَها** » [2] .

ثم أخذ كل عاقل يستمع إلى أنباء الرسالة الجديدة يشعر أنه مكلف باتباعها « **وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذا القُرآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَنْ بَلَغَ** » [3] .

وأخيراً تقرر أن أضواء الإسلام كأشعة الشمس ، لا تدع براً ولا بحراً إلا تألق بها واستنار :

« **تَبارَكَ الَّذي نَزَّلَ الفُرقانَ عَلَى عَبدِهِ لِيَكونَ لِلعالَمينَ نَذيراً** » [4] .

وبذلك البيان الحاسم والعموم الشامل أدى الدعاة الأوائل رسالة الله ، ولا يزالون يؤدونها فى نطاق الإنسانية التى تعمر كل قارة ، وتنتقل فى كل عصر .

ودخل فى الإسلام الروم والفرس والترك والهنود والزنوج وسائر أجناس البشر من أصفر وأحمر وأبيض .

والمسلمون على اختلاف الليل والنهار يزيدون ، ولا نظن هذه الزيادة تقف عند حَدٍّ معين ، بل إن أملنا أن تشمل جمهرة البشر يوماً ، ويتحقق قول الله جل شأنه :

---

(١) الشعراء آية : ١١٤ .
(٢) الشورى آية : ٧ .
(٣) الأنعام آية : ١٩ .
(٤) الفرقان آية : ١ .

« هُوَ الَّذى أرْسلَ رَسولهُ بِالهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظهِرَهُ عَلى الدِّينِ كُلِّهِ وَلوْ كَرِه المُشْـركُونَ » (١).

فهل انتشار الإسلام على هذا النحو معناه أن يستعرب الخلق كافة ، وتذوب الأجناس الأخرى ؟ كلا كلا !! فإن بقاء الأجناس واللغات آية كونية من آيات الله فى الأنفس والآفاق .

وفى هذا يقول الله جل شأنه : « وَمِنْ آياتِه خَلقُ السَّـموَات وَالأرضِ وَآختِلَافُ ألسِـنَتكُم وَألْوانِكُمْ ، إنَّ فِى ذَلِكَ لآياتٍ لِلعَالِمِينَ » (٢).

والذين يكلفون الإسلام بهذا يطلبون منه أن يفعل المستحيل .

والذين يعيبون الإسلام بأنه لم يفعل هذا ، ويقولون : إن الإسلام لم ينجح فى إذابة القوميات الأخرى ، إنما يدلون بهذا القول على عدم فهمهم لتعاليم الإسلام ولطبائع المجتمعات ...

إن الإسلام إثبات لا تغيير ، إثبات لفطرة الله فى الخلائق لا تشويه لها أو عدوان عليها :

« لا تَبدِيلَ لخلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ القيِّمُ وَلكِنَّ أكثرَ النَّاس لا يَعلَمُونَ » (٣).

ويستطيع الانجليزى والروسى والصينى أن يكونوا مسلمين وهم على ألسنتهم وألوانهم ، فإن معرفة الله الواحد ، والاتجاه إليه ، والإعداد للقائه معانٍ فى الأفئدة والألباب ميسورة للناس أجمعين .

وشرح الإسلام ووصاياه لأهل الأرض بكل لغة ، فريضة علينا نحن العرب الذين اصطفانا القدر لتلقى الوحى ، ولَفْت العالمين إلى رب العالمين .

اوكون اللغة العربية لغة الإسلام ، لا يعنى أكثر من فرضها لغة عالمية للتفاهم الإنسانى كله ، وليس معناه محو اللغات الأخرى .

---

(١) الصف آية : ٩ .
(٢) الروم آية : ٢٢ .
(٣) الروم آية : ٣٠ .

وفتح باب الاستعراب للأجناس كلها لا يعنى أكثر من تجديد الأمة العربية على مَرِّ الزمان ، وليس معناه إزالة الأجناس الأخرى .

* * *

بَيْدَ أن هناك حقيقة لا بُدَّ من شرحها وتجليتها . إن هذا الاختلاف الجنسى يعلو عليه الإسلام بوحدة المشاعر والسلوك التى يفرضها على أتباعه ، وبأخوة الإيمان التى ترجح أى آصرة أخرى ، وبالولاء لله ورسوله الذى يسبق كل ولاء .

وفى الحديث : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » .

اجعل الكعبة مثلاً نقطة ارتكاز لدائرة تشمل نصف آسيا وافريقيا وأوربا ، وتطوى داخل أقطارها الهنود والعرب والفرس والترك والأحباش .

إن هؤلاء الأقوام يجعلون هذه الكعبة قبلتهم خمس مرات فى اليوم ، وتتصل سرائرهم بمناجاة واحدة وتهفو قلوبهم برجاء واحد ، ويحيون فى هذه الدنيا على نهج متقارب ، وهم مازالوا ، وسيبقون على أجناسهم الأولى ..

وعندما تتسع هذه الدائرة ، فتشمل جماهير من البشر أكبر سيظل الأمر على ما نرى .

إيمان فذ ينتظم القلوب والأفكار ، وخلاف فى الهيئات والبيئات واللغات لا أثر له فى شىء ذى بال .

ونحن واثقون من أن مستقبل الإسلام طيب ، وأن العودة إلى الله الأحد الصمد سوف تنشرح لها صدور جماهير كثيفة من الخلائق وأن بعد هذا الجزر مَدّاً عريضاً تنتعش فيه مواريث السماء ، وترفرف به أعلام التوحيد .

ويومئذ لن يكون ولاء أبناء آدم لوطن أو جنس ، ولن تكون عصبياتهم لمغنم ، أو خرافة ، بل لله وحده .

إن الإسلام يجعل تعلّق الناس بالروح لا بالمادة ، بالسماء لا بالأرض ، بالخصائص العليا لا بالغرائز الدنيا ، وقد تعارف العرب والمسلمون فى أقطارهم الفيحاء على تلك المبادىء المرنة السمحة ، ونجوا من الوثنية الحديثة التى عرفتها حضارة الغرب فعرفت بها التشاجر والتشاحن وسفك الدم الحرام وأكل المال الحرام .

إن المؤرخ الانكليزى « توينبى » يعلق على العرب والمسلمين على هذه الوحدة الزكية التى انتظمتهم مع تباين الدار ، واختلاف الجنس فيقول [1]:

« إن الإنسان العربى يستمتع بمزايا عظيمة حيثما كان . تضفيها عليه نسبته للأمة العربية ، فهو يشعر أنه فى داره مهما تنقل بين بلاد العروبة والإسلام .

إن الحجازى أو النجدى أو العراقى أو المصرى أو المراكشى أو التونسى ... إن أحد هؤلاء لا يجد فرقاً فى الجو الاجتماعى ، ولا فى روح الحياة العامة ، ولا فى مستوى الإدراك السياسى بين الرباط والقاهرة ودمشق وبغداد .

بل المسلم ـ أياً كان لونه ـ لا يحس فرقاً يذكر عند ارتحاله بين حواضر الإسلام من (فاس) إلى (كابول) إلى (كراتشى) .

فدار الإسلام تسودها مَشَـابه جامعة ! قباب المساجد ، ومآذنها ، والزوايا ونافورات المياه وطابع العمارة ، وهتاف المؤذنين داعين إلى الصلاة ، واستقبال شهر رمضان لأداء فريضة الصوم ، وسائر معالم الإسلام التى تظهر على الأشخاص والأشياء ...

ذلك كله يجعل المسلم لا يخامره إلا شعور واحد ، الشعور بأنه فرد من هذه الأمة الكبيرة ، وجزء من كيانها الواحد .

وهذه العاطفة هى العامل المهم إذا حزب الأمر وتعرَّض الإسلام لخطر داهم وتطلب الموقف التضافر والحزم ، وعندئذ تسمو هذه العاطفة العربية الإسلامية على فكرة « الجنسية الحديثة ـ يعنى القومية الخاصة » .

قال المؤلف : (وينصح « توينبى » شعوب الغرب أن تقتدى بالعرب ـ والمسلمين ـ وأن تترك أحقادها ومنازعاتها وتطاحن دولها فى سبيل السيادة السياسية ، والنزاعات القومية .

وبذلك تخف حِدَّة الخصام بينها ، وتبتعد أخطار الحروب المدمرة ، وإلا فإن حضارة الغرب معرضة للانهيار ، خصوصاً بعد تفجير قوى الذرة) .

أقول : لابد أن هذا المؤرخ زار البلاد الإسلامية قبل أن تنجح سياسة الغرب

---

(١) بحوث فى المجتمع العربى للدكتور أحمد سويلم العمرى .